جورج صاند

رامة الشيطان

رواية



ترجمها عن الفرنسية وقدم لها :

الدكتور: علي نجيب إبراهيم



رائحة الشيطان

دار الينابيع

«للطباعة والنشر والتوزيع»

دمشق ص.ب 6348

☎ 3324914

أولاً: التوزيع في لبنان:

دار الفارابي

بيروت - ص.ب: 11/3181

☎ 305520

ثانياً: التوزيع في مصر

دار الذهر

20- ش الطوبجي - خلف مرور [illegible]

- ت . فاكس 3489018

❖ الإخراج الفني: مي مكارم

جورج صاند

رامة الشّيطان

«روايــــة»

ترجمها عن الفرنسية وقدّم لها:

د. علي نجيب إبراهيم

العنوان الأصلي للرواية:

LA MARRE AU DIABLE

Georges Sand

تقديم

جورج صاند: حياتها ومؤلفاتها:

ولدت «آرماندين أورور لوسي دوبان Armandine Aurore Lucie Dupin» في الأول من تموز سنة ١٨٠٤، وكانت قد جمعت بين والديها ظروف غريبة، إذ كان والدها "موريس دوبان" ضابط أركان حرب في الجيش الفرنسي، بينما كانت والدتها "صوفي ديلابور" الفاتنة الجمال، راقصة في واحد من أرخص ملاهي باريس، لها علاقات مشبوهة مع عدّة رجال كان منهم قائد موريس في الجيش. وقد وصفتها جورج صاند في مذكراتها بقولها: "كانت أمي من النوريات الغجر، سليلة جنسٍ منحطٍ متشرّد .. وقد كانت – في فترةٍ من حياتها – راقصة، أو بالأحرى شيئاً أحط من راقصة، في ملهىً من أقذر ملاهي باريس سمعةً !...حتى قيّضت لها الأقدار رجلاً موسراً أنقذها من هذا الوحل، ولكن ليفرض عليها حياةً أكثر وحلاً ! وحين التقى أبي بها كانت في الثلاثين، تعيش في دوّامةٍ من الفوضى الضارية "لكنّه كان ذا قلب كبير،

وقد أدرك أن الحسناء التعسة ما تزال قادرة على أن تُحبّ، وتهب قلبها مخلصاً لمن تُحبّ "(1)

لكنّ موريس دوبان – وقد لاقى من أمّه المترمّتة الوقورة رفضاً صارخاً لهذا الزواج – راح يؤجّل الأزمة حتى حملت منه صوفي، فعقدا زواجهما سراً في ١٦ نيسان عام ١٨٠٤. وهكذا رأت "أورور"النور . إلاّ أن الأقدار دارت باتجاه البؤس، حيث مات موريس على أثر سقوطه عن حصانه سنة ١٨٠٨. ممّا أرّث الضغينة بين الأم والجدّة، فاضطرت صوفي إلىأن ترحل إلى باريس تاركةً ابنتها في كنف جدّةٍ ثرية (فهي حفيدة ملك بولونيا). وهناعكفت الجدّة على حفيدتها بالرعاية الشاملة، فاستقدمت لها الأساتذة يعلّمونها الموسيقى، والعلوم الطبيعية، واللغة اللاتينية.وكانت استجابة الصبيّة تنمّ عن شخصية واعدة. على أنّ الجدّة مالبثت أن أطلعتها على ماضي أمّها الملوّث، فأشعلت في داخلها روح التمرّد، لتصير مصدراً لإقلاقها، فما كان منها إلا أن تدخلها ديراً في باريس، وحلمت أورور أن تصير متديّنة لأن جوّ التصوف أثّر فيها .وبقيت الجدّة متخوّفة منها،فأعادتها إلىبلدة "نوهان" لتستأنس من جديد بالأجواء الريفية الهادئة، وتمتطي الجياد، وترتدي ثياب الصبيان، وتقضي الليل بالقراءة، وبقراءة روسو خاصة، يضاف إلى ذلك ما رتّبه عليها شلل جدّتها من واجبات. وكان ذلك سنة ١٨٢٠،حيث صارت أورور صبية ذات جمال

---

(1) ـ سلسلة كتابي لصاحبها ورئيس تحريرها «حلمي مراد»، تلخيص كتاب «حياة جورج صاند» لآندريه موروا، عدد ٢٣، كانون الثاني ١٩٥٤ ص ١٦٢.

متوحش "شقراء كالموريسك"، في عينيها شهوة متأجّجة، وفي داخلها غليان لا سكون له. ولما التحقت بأمها في باريس بعد أن ماتت جدّتها في ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٢١، بعثتها أمّها لتقضي عطلة في ضيعة أسرة من أصدقاء الراحل موريس دوبان، وهناك تتعرّف ضابطاً شاباً اسمه "كازيمير دي دوڤان"، وهوابن غير شرعي لبارون دي دوڤان، فتتزوج منه في ٢٢نيسان عام ١٨٢٢. لتكتشف، بعد حين، أن وراء لطفه ذكاءً شحيحاً. وبعد سنة ولدت " موريس" الذي لم يأت إليها إلاّ بالمزيد من الأسى على خطيئة ارتكبتها بسرعة لتحي النفور والقرف. وفي هذه الأثناء، وتحديداً عام ١٨٢٥، التقت بالمحامي الشاب "أوريليان دو سيز" الذي ترافق تشجيعه لها على كتابة الشعر مع وقوعه في هواها. إنما بقيت علاقتهما عذرية.

في عام ١٨٢٨ جاءتهما بنت أسمياها "سولانج"، وما فعل قدومها أكثر من مفاقمة عدم التفاهم . ويبدو أن "أورور" انجذبت إلى شاب يدعى "جيل صاند" وكانت لاتزال على علاقتها العذرية مع "دو سيز"،وسرعان ما تحوّ ل الانجذاب إلى حبّ حقيقي، روحياً وجسدياً؛ ذلك لأن علاقتها الشهوانية مع "ستيفان دي جراند ساني" التي بلغت معها أوج انحدارها، لم تروِ ظمأها إلى اتحادٍ متكامل مع فتى أحلام يجعل منها إلهةً للحُبِّ والجمال. وهكذا لحقت بفتاها "صاند" إلى باريس معلنةً تمزّق أسرتها، وإن هي لم تعلن نهايتها عندما أرغمت زوجها على الإذعان لتزويدها بثلاثة آلاف فرنك، وللبقاء مع الأولاد في نوهان، ولما كان -- هو الآخر - متورّطاً في الخيانة الزوجية، نزل عند

رغبتها في أن تبقى ستة أشهر في باريس وستة أشهر في نوهان. ومنذ ذلك العام (١٨٣١) بدأت تنشر كتاباتها في "الفيغارو" ممهورةً باسم "جيل صاند" (نشرت قصتين ورواية عنوانها "وردي وأبيض") . وما هي إلا سنة حتى تشبّ نار الخلاف مع " صاند"، وتحلّ القطيعة، لذلك راحت أورور تبحث عن اسم يلائم كنية" صاند" ، واختارت بسرعة اسم "جورج" . وفي هذه الأثناء نشرت روايتين : "آنديانا" ، "وفالانتين" وخلقت عند الجمهور حماساً ملحوظاً لأسلوبها. وفي عام ١٨٣٣ كتبت رواية "ليليا" جسّدت فيها بأسلوب غنائي فلسفي ، أزمة عميقة ومؤلمة ، فبعد مغامرة مُخفقة مع "بروسبير ميريمية" ، اعتقدت أنها تكتشف السعادة كاملة وراء ملامح شاعر شاب وفي الثانية والعشرين من عمره يُدعى" الفريد دو موسيه . A. de Musset " وإبّان رحلتها معه إلى إيطاليا في ١٢ كانون الأول من عام ١٨٣٣، وبينما كانا في مدينة ڤينيسيا راحت جورج صاند تشكو من الام في رأسها، ومن الديزنتاريا، فتضايق منها الفريد ولقّبها بألقاب تعبّر عن انزعاجه مثل "الإزعاج المشخّص، والحالمة ، والبلهاء ، والراهبة(١) "، ونتيجة ذلك انصرف إلى الخمرة وارتياد الأماكن المشبوهة ، فانتهى إلى حال من المرض خطيرة الغاية . ومع أنّ جورج محّضته خالِصَ عنايتها ، فقد كفّت عن أن تكون أكثر من "أخت إحسان"، لأن قلبها خَفَقَ لطبيبٍ شابٍ حَسَنِ الطلعة هو "بيترو باجيللو". وما كاد "

(١) انظر: لوغوتيير (ادموند)، مقدّمة «رامة الشيطان» باريس، ١٩٦٤ ص (١)

موسيه " يعرف طرفاً من الحقيقة حتى غادر ڤينيسيا عام ١٨٣٤ مختفياً من حياتها. أما هي فمكثت هنالك بضعة أشهر لتكتب رواية "جاك" و "آندريه" و "رسائل مرتّل". ولمّا عادت إلى باريس عام ١٨٣٥، أعاد "موسيه" العلاقة إلى سابق عهدها، لكنّه، بعد أن علم من أحد الوشاة أنّها خانته في ڤينيسيا، صمّم على إنهاء كلّ شيء بينهما. فاستغاثت جورج متأسّفة، ونزلت في رجائها له إلى حد الصَّغَار، ولم يستجب. فانسحبت إلى "نوهان" مُثْخَنَةً بطعنات الألم والانكسار. على أنّ هذه النهاية كانت مؤثرة فيهما إلى حد أنّ موسيه روى قصتها في كتابه " اعتراف طفلِ العصر"، عام ١٨٣٦، بينما روتها جورج صاند في "هو وهي" عام ١٨٥٩.

بقيت جورج صاند في بلدتها "نوهان" من عام ١٨٣٥ – ١٨٣٧، حيث استطاعت أن تربح دعوى انفصالها عن زوجها البارون ديدوڤان، بمساعدة صديقها المحامي الموهوب "ميشيل دوبورج". وعندئذٍ تعود جهارةً إلى الأفكار الجمهورية التي كان يدعو إليها هذا المحامي. بيد أنّها، منذ ١٨٣٦ مالت إلى دعوة "لامونّيه" حالمةً بتحرير النساء من قيودهن، والحال أن "لامونّيه" كان يسعى لتحرير الرجال. وقادها طبعها القُلَّب إلى الإعجاب الحماسي بأفكار صديقها المصلح "بيير لورو P.Leroux"، الداعي إلى أن الدين قابل للتحسين، وأن كبار الهراطقة ليسوا إلا روّاداً. وكانت صاند تريد أن تكون "المشيّعة لهذا الإنجيل الجديد" على جناح السرعة. وهكذا كتبت بوحي من ذلك

"سـبيريدون" عـام ١٨٣٩. و"كونسـيلو" عـام ١٨٤٣. و"كونتيسـة رودلستات" عام ١٨٤٤.

ولم ينقض هذا الزمن دون توق العاشقة إلى معشـوق، ففـي سـنة ١٨٣٨ تبدأ قصّتها مع "شوبان" لتستمر قرابة عشر سنوات رغم بدايتهـا بخَيْبَةٍ مُرعبـة، ففي أثناء وجودهما في"ماجورك"حيث رحلا معاً، اشتدّ البرد وتَساقُطُ الأمطار، فكاد "شوبان" يموت من الحساسية التي كان يعاني منها في صدره. وكان علـى جورج أن تسـهر على مريضهـا الشـاحب،المرتعـد مـن البـرد، الـذي يخلخلـه السّعال. مما حوّل عاطفتها تجاهه إلى حنان هادىء، وعـزاءٍ أمومـي لايخلـو مـن الضّيق.

وبين عـامي ١٨٤٥–١٨٥٣ كتبـت سلسـلة رواياتهـا الـتي أعطتهـا عنوان:"الرعوية"، تعبّر فيها عن أكثر ما يأسر قلبها : الحلم بالاشتراكية، وحب منطقة"بيري Berry"الريفية. ويمكن اعتبار روايتيهـا: جـان (١٨٤٤)، وطحّـان آنجيبو (١٨٤٥)، مقدّمة لمجموعة الروايات التي جمعَتْهـا تحت عنـوان: **سـهرات مُصنّع القُنّب** وهي : **رامة الشيطان**(١٨٤٦)، **وفرانسوا لو شامبي** (١٨٤٨)، **وفادِيْت الصغيرة** (١٨٤٩)، **ومُعلّمو التزمير بالقُرَب** .(١٨٥٣)

وفي عام ١٨٤٨ تضع جورج صاند نفسها في خدمة الثورة حيث تساهم في توضيح " الاختيـارات والمحـاذير" لـ"لـودرو · رولان" الواقـع تحت تأثيرهـا،

وتكتب رسائل للطبقة المتوسطة، وللأغنياء، وللشعب، وتؤسّس جريدة "قضية الشعب"، كما أنهاصاغت "بيان الجمهورية" متعاونةً مع"باربس"، هادفة إلى المصالحة الوطنية. إلا أنها تخاف من عواقب انتفاضة العمّال الباريسيين في حزيران، فتلوز بـ "نوهان"، ولما فاز حزب "النظام" وانسحق الجمهوريون المعتدلون في أيار عام ١٨٤٩ كانت في باريس، ووّدت لو تقاوم، لكنّها شعرت أنها ليست أكثرمن امرأة ضعيفة خائفة من التوقيف، ومُشْفِقة على حظها، داعية نفسها بـ " الكائن الأكثر مُسَالمةً على الأرض."

بين عامي ١٨٥٣و١٨٥٦ تعيش"صاند" فترة من همود الموهبة، فلا تكتب سوى "قصّة حياتي"، وبعض المسرحيات والروايات ذات المستوى الضعيف. وإلى جانب ذلك تترك نفسها لطبيعة نوهان فتعاشرها جامعةً منها النباتات والحشرات. وبدءاً من عام ١٨٥٦ تعود بحماسة إلى كتابة الرواية التي تخلّصها من عبودية المسرح، وتوفّر لها الحرية الكبرى. إلا أن إلهامها يتشّتت بين الرواية التاريخية (**أسياد بوا–دوريه الجميلون ١٨٥٨**)، والرواية المدينية (**يوحنا الصخرة ١٨٥٩، وماركيز فيلمار ١٨٦٠**)، ورواية الأطروحة (**الآنسة كانتيني ١٨٦٣، وثورية الأمس تغدو بورجوازية**).

وأخيراً تأتي الشيخوخة لتمتدّ على أحد عشر عاماً تستقر صاند خلالها في نوهان، مع أنها لم تقطع اتصالها بالكتّاب الشباب في باريس، ولا ارتيادها لمجالس "فلوبير"، ومراسلتها المستعادة بعد زمن طويل. وما كانت الشيخوخة

تُقضّ مضجعها ؛ لأنها استقبلتها – كما يقول موروا – بعدم اكتراث.
وعندما جاء الموت في ٨ حزيران عام ١٨٧٦، كان عودةً إلى الأرض حيث
الخضرة التي رقدت صاند في وسطها، والتي طالما أحبّتها وكتبت عنها رغم
هَيَجان ذاتها واضطراب ظروفها.

رواية "رامة الشيطان:"

ثمة أمران يستوقفان قارئ هذه الرواية وناقدها على السواء:

أوّلهما أن الكاتبة استوحتها من لوحة للفنان الألماني "هانس هولباين الابن (١٤٥٧ - ١٥٤٣) عنوانها "الفلاّح والموت"، فقرنت بينها وبين ماكانت تراه حولها في حقول "نوهان" في أثناء موسم البذار، محوّلةً موضوع روايتها من ظلامية الموت إلى ضياء الحياة. وبهذا أعطت للمسافة الجمالية التي يفترضها فعل الإبداع بُعدين: البُعْد بين لوحة محفورة لها قوانينها وطبيعتها، ورواية لها طابعها ووسائلها الخاصّة، والبُعْد بين الواقع الذي يُحيط بها، والواقع الحكائي الذي صاغته بوساطة اللغة. وبعبارة أدقّ نقول: لقد حقّقت ما يسمّى بـ"تراسل الفنون" (١) حيث توحي القصيدة باللوحة، ويوحي التمثال باللحن الموسيقي. وقد يقوم الفنان بتوظيف عمل فني في عمله هو، على نحو مافعل دوستويفسكي بلوحة "المسيح ميتاً" المرسومةً سنة ١٥٢١، للفنان الألماني هانس هولباين نفسه، إذ كان قد رآها في درسدن بحسب ما تُخبرنا زوجته في مذكّراتها، فظلّ مُتسمّراً أمامها أكثر من عشرين دقيقة، وكادت هذه الدقائق من التوتّر الروحي تنتهي بنوبة صرع. ولما كتب روايته "الأبله" جعل هذه

---

(١) انظر: سوريو (ايتين)، تراسُل الفنون، باريس، فلامار ميون ١٩٤٧، حيث يرسم في هذا الكتاب معالم نظرية عامة للفنون أساسها «تراسل الفنون» La correspondance des arts.

اللوحة في بيت إحدى شخصيات الرواية: "روغوجين"، وعندما رآها "هيبوليت" أدرك الفرق بين ماكان اعتاده الفنّانون في رسم المسيح إما على الصليب وإما بعد نزوله عنه، مع وميض الجمال في وجهه الذي يفوق الطبيعة، ولوحة هولباين التي تصوّر تصويراً كاملاً جسماناً إنسانياً يعبّر عن جميع العذابات التي لاحدود لها مما احتمله حتى قبل صَلْبه. فقيها آثار الجروح وآثار اللطمات والضربات التي أمطره بها حُرّاسه والناس حينما كان يحمل صليبه ويقع على الأرض[1] . والغريب أو محض المصادفة أن يستلهم دوستويفسكي وجورج صاند روايتين من لوحات فنّان واحد. لكن طابع الإدانة الذي تحمله لوحاته لمجتمع القرون الوسطى وتعسّف رجال الكنيسة لاقى صداه عند روحهما النقدية المشبعة بالتطلّعات الرومانتيكية المثالية. ومن ثمّ ندرك أن تراسل الفنون لايعني تطابقها، بل يعني تفريغ دلالاتها وتلوينها ذلك التلوين الذي نلاحظه في رواية"الأبله"، وفي "رامة الشيطان."

والأمر الثاني أن جورج صاند جعلت من أوّل ثلاثة فصول من روايتها مجالاً لشرح أفكارها، ولتوضيح الرؤية الجمالية الرومانتيكية التي آمنت بها ودافعت عنها ضمن إطار اشتراكي طوباوي. ولعلّ الأثر الأكبر في أفكارها يعود إلى "جان جاك روسو" الممثّل لأوسع ردّة فعل ضدّ الموضوعية الصارمة

---

(١) انظر: دوستويفسكي، الأبله، ترجمة سامي الدروبي، مراجعة «أبو بكر يوسف»، دار رادوغا، موسكو ، الجزء الثاني، ص١٦٥ .

لعقلانيي القرن الثامن عشر[١]، حتى إنّ دفاعه عن المشاعر في مقابل العقل لَيُعْتَبَر واحداً من المؤثرات القوية التي شكّلت الحركة الرومانتيكية[٢] بما أسندته إلى مشاعر الانسان الطبيعية من قدرةٍ على هدايته إلى الطريق الصحيحة، زاعمةً أن العقل مضلّل مما يعني أن أي فعلٍ يقوم به الانسان مُسوَّغ مادام عائداً إلى أُسُسٍ انفعالية عند صاحبه؛ إذ يُفضي المرء إلى عبادة انفعالاته، وإلى قصْرِ مفهومات الغَيْب على الطبيعة، فلا شيء خارج الطبيعة . وتَلازَمَ ذلك مع إيمان الرومانتيكيين ببساطة الحياة مهما عانى الإنسان من مخاطرها "وهكذا انبثقت الفكرة المَصطبِغة بالصبغة المثالية، فكرة الفلاّح الفقير الذي يحيا حياةَ شظفٍ من جُهْدِه الذي يبذله في قطعة أرضه الصغيرة، ولكنّه يعوّض عن هذا بأن يعيش حُرّاً، ويظلّ بمنأى عن فساد حضارة المدن"[٣].

وعليه فإن حياة "صاند" العاطفية المتقلّبة إلى حدّ الشذوذ والحسيّة الصارخة تجد تفسيراتها في العبودية الرومانتيكية للعاطفة، وربطها بالحرية الفردية التي تتغنّى بجمال الطبيعة وتفتّح الحياة، والاسترسال مع الأحلام. فأورور كانت تريد ارتواءً روحياً من حُبٍ يعبِّر عن طابعِ العصر السائد الذي

---

(١) انظر: آبيه شوفان، و «لوبيدوا» الأدب الفرنسي كما يراه النقّاد المعاصرون، باريس١٩٠٣، ص.ص ٤٨٨ - ٥٠٧.

(٢) انظر: مرسل (برتراند)، حكمة الغرب، ترجمة د.فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت،ج٢ك١، ١٩٨٣ ص.ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٦ .

دفعها لتُمثِّلَ دور آلهة الشعر الرقيقة، الوديعة(١) . وأغلب الظنّ أنها واءمت بين استجابتها الإبداعية واستجابتها العاطفية لجمال الطبيعة والحياة، وقد لايكون في هذه المواءمة ما يناقض منطق التفكير، والتفكير الرومانتيكي الحالم خاصّة. لأنها بقدر ماتتطلّب من حرية، تنطوي على البساطة في أكثر من جانب؛ ولما كانت البساطة لاتتمخّض دوماً عن الجمال أو مايقاربه، فلا ضرورة أكثر إلحاحاً من تجميلها وإظهارها في ثوبها المؤثّل مثلما نجد في قصة "رامة الشيطان": فلاح شاب فقير، طيّب، يتزوّج من بنت السيّد موريس المَيْسُور، فتموت زوجته بعد أن تَلِدَ له ثلاثة أولاد. فيحضّه حَمْوه وحماته على الزواج ثانيةً. ويدلاّنه على أرملة من بلدة" فورش"، ويهيىء نفسه للسفر (رغم أن المسافة بين نوهان وفورش قريبة جداً، لكنها بعيدة في نظر فلاّح لايبارح أرضه). وتطلب منه السيدة "غيّيث" أن يصطحب ابنتها "ماري" معه ويوصلها في طريقه إلى مزارع "أورمو"، وبالحيلة يفرض ابنه "بيير" نفسه ويذهب معهما تحملهم جميعاً الفرس الصهباء في رَكْبٍ حزينٍ مُرتبك: فالصبيّة محزونة على أمّها، والفلاّح لايريد هذه الزيجة المجهولة المعالم في ذاته المتعوّدة على علاقاتٍ مباشرة صريحة لاتسمح له أعماله في حراثة الأرض وزراعتها بأن يتجاوزها. ونتيجة ضياعهم في الغابة، معتقدين أن "رامة الشيطان" هي السبب ، يضطرون لقضاء الليل تحت الأشجار. وخلال السهرة بدأ "جرمان" يشعر ب "ماري" ويترك نفسه

---

(١) انظر: سلسلة كتابي، نفسه، ص.ص ١٧٠-١٧١.

على سجيّتها طالباً منها الزواج، فَتُعْرِض عن ذلك بحجّة أنها فقيرة، وفي اليوم التالي يتابعون طريقهم، فيذهب جرمان إلى الفورش، وتذهب ماري وبيير إلى مزارع (أورمو)، وهنا يجد كلٌّ من جرمان وماري عكس مايطلبان: فالأرملة لم تكن سوى متبرِّجة تتلذّذ بتجميع المُعْجَبين حولها، وصاحب المزارع الذي استأجر ماري لتعمل راعيةً عنده لم يكن أكثر من زير نساء حاول الاعتداء عليها .

وأنقذها منه جرمان فيما بعد. لكنه لم يستطع أن يفهم أنها تحبّه كما يحبها وأوشك على الهزال غارقاً في بحرٍ من الكآبة لولا إدراك حماته لأسباب حزنه، واستئذان العم موريس كي يعطيه موافقته على مفاتحة ماري بالأمر وطَلَبِ يدها. لتنتهي الرواية بموافقتها على الزواج منه. وهكذا تمكّنت جورج صاند أن تقدّم وجهة نظرها عن "بساطة الجمال" عبر شخصيات بسيطة، وعلاقات بسيطة كذلك: فالأب والأم موريس إنسانان خيّران يتمنيان السعادة للناس جميعاً، والسيدة "غيّيت" فقيرةٌ، طيبةٌ، حَسَنَة الظن. وجرمان يحب أن يبقى لصيقاً بأرضه شأنه شأن فلاّحي منطقة الـ "بيري " كلهم. وقلّما كان يبارحها إلا يوم سُوْقِ الخيول. وعندما حاول أن يقصر الطريق إلى فورش متبعاً طريقاً غير التي كان يعرفها، ضاع، وعانى الكثير حتى عرف الاتجاه الصحيح .

انطلاقاً من هذه العفوية أقامت جورج صاند دعائم نظريتها النقدية ناظرةً إلى الرواية على أنها عملٌ يتضمن الشعر والتحليل في آن معاً. ويجب أن تجسّد

طباعاً واقعيةً، وأحداثاً وظروفاً حقيقية تدور حول محور نموذج بشري يكثّف فكرتها الأساسية، ويمثّل، بصورة عامة، عاطفة الحب، لأن الروايات، في جوهرها، قصص حب. وعلى الكاتب الروائي أن يرسم الحب في تجلّيه الأمثل، وبالتالي أن يُقَوِّمْ نموذجه دونما خشيةٍ من خَنْقِه بما ينبض في ذاته من مشاعر البهجة والألم، حتى لو تجاوز في ذلك المألوف عند الناس العاديين. فعفوية حكايته لاتستلزم أن يترك أبطاله لمصادفات الأحداث، تائهين، ولا فرصة لديهم ليحقّقوا في الحياة انتصاراً هاماً.(١)

لقد كانت جورج صاند تُنادي بأدب ذاتي لايتفق مع اتجاه صديقها "فلوبير"(٢) الذي دعا إلى حيادية الكاتب وموضوعيته. كما أنّ في النماذج المؤمثلة مايكاد يناقض نظرية بلزاك في إعادة إنتاج التاريخ(٣) . ومن أجل ذلك تتّسم المقدّمة النقدية لـ "رامة الشيطان" بأهمية ملحوظة قد تُشكّل مع "مقدمة كرزمويل(٤) " لـ "فيكتورهيغو" مايمكن تسميته بـ "البيان الرومانتيكي". إضافة إلى أنّ كشف الكاتبة لأسرار روايتها، وربطها برؤيتها النقدية يكوّنان ظاهرةً

(١) انظر: صاند (جورج) قصّة حياتي، كالماليفي، باريس ١٨٥٤، الجزء الرابع، ص ١٣٥.

(٢) انظر: صاند (جورج)، رسالة إلى فلوبير بتاريخ ١٨٧٦/١/١٢، حيث تدعو فيها إلى أدب ذاتي.

(٣) انظر: بلزاك، مقدّمة الكوميديا الإنسانية، طبعة ١٨٤٢، إذ يرى أن على الكاتب الروائي أن يخلق عالماً متكاملاً.

(٤) منشورات مؤسسة المنشورات الأدبية والفنية، مكتبة بول أولاندور، باريس ١٩١٢. ونشير إلى أننا بصدد ترجمة هذه المقدّمة، وسننشرها في وقت لاحق إذا شاء الله .

لابدّ من الإشارة إليها وهـي أن فعل الإبـداع يجنح إلى توجيه "فعل القـراءة" وتحديد مساره. فهل نعتبر ذلك ثرثـرةً لاطـائل من ورائها تُسيء إلى عذوبـة القصّة المروية، على غرار ما ارتآه "سانت بوف"[١] و "غوستاف بلانش"، أم نأخذ بالحسبان أن جورج صاند كانت تطمح إلى تعليم الغـني احـترامَ الإنسان الكادح، وتعليم الفقير أن يحترم نفسه[٢] ، فَلَجَأت إلى هذه المقدمـة ذات الوقـع الخطابي؟ .

على أية حال، كانت رواية "رامة الشيطان" ولا تزال أغنية لمـن يكسبون لقمة العيش بعرق جباههم، لملوك الأرض كما تسمّيهم جورج صـاند. والأَوْلى أن يعيش القارئ القصّة التي تحكيها عن واحدٍ منهم لِيتذوَّقَ بنفسه ما يمكن أن يُغنيه عن القراءات النقدية كلّها.

ويبقى أن نلفت النظر إلى لغـة الروايـة الـتي نطقتها الشـخصيات بلهجـة منطقة "بيري"، و لم يكن أمامنا إلا المحافظة على بساطتها الريفية مستعينين بلغـة عربية مبسَّطة قريبة من لهجة الفلاحين ومعجمهم اللغوي، آملين أن نكـون قـد وُفِّقنا في ذلك.

د. علي نجيب إبراهيم

---

(١) انظر: ادمون لوثوتيير، مقدّمة «رامة الشيطان» ص ١٣.

(٢) من رسالة كتبتها جورج إلى «بولسي» بتاريخ ١٢ أيلول عام ١٨٤٤.

توضيح بقلم الكاتبة:(١)

عندما بدأتُ، من خلال "رامة الشيطان"، بتأليف سلسلة من الروايات الرعوية التي كنت أنوي جمعها تحت عنوان: سهرات مصنّع القنّب(٢) ، لم يكن لديّ أيّ منهج، ولازعم ثوري في الأدب. فلا أحد بمفرده يقوم لنفسه بثورة، وثمّة ثورات، في الفنون خاصّة، تصنعها الانسانية دون ان تعرف جيداً كيفية صنعها؛ لأنّ العالم كلّه يتحمل إشعالها. لكنّ هذا لايمكن تطبيقه على رواية الأخلاق الرعوية. فقد وجدت في كلّ عصر، وبمختلف الأشكال الفخمة تارةً، والمتكلّفة تارةً ثانية، والساذجة تارةً ثالثة(٣) ، قلت هذا سابقاً، وينبغي أن أكرّر هنا، الحلم بالحياة الرعوية كان دائماً المثل الأعلى للمدن وحتى للقصور الملكيّة. وأنا لم آت بجديد إذ أتّبع المنحدر الذي يقود الانسان المتحضّر إلى سحر الحياة البدائية. و لم أرد خلق لغة غير موجودة، ولا البحث عن طريقة جديدة. ومع ذلك فقد أكّدوا لي ذلك في عدد كبير من المسّودات، غير أنني أعرف أكثر

---

(١) كتبتْ جورج صاند هذا التوضيح المقتضب سنة ١٨٥١ لتصوير الطبعة الشعبية لمؤلّفاتها التي أشرف على نشرها «طوني جوهانو» و «موريس صاند».

(٢) صنّاع متجوّل كان معروفاً في فرنسا حتى نهاية القرن التاسع عشر، تصفه جورج صاند في قصّتها: «أعراس ريفية» بأنه إنسان فصيح، متحدّث لَبِق، وثرثار، وحكواتي، ومُغَنّ، يُحبّ أن يُثير الضحك، لكنه لا يكره أن يتمتّع بإخافة الآخرين.

(٣) تقصد صاند بالأشكال المتكلّفة والفخمة رواية « آستريه» لـ «هونوريه دورفيه»، وبالساذجة رواية «بول وفرجيني» لـ «برناردان دوسان بيير». وقد كان الكاتب الإغريقي «لونجوس» أوّل من ألّف روايات الأخلاق الريفية.

من أيّ شخص آخر سبب حذري من مسوداتي الخاصة، وأعجب دائماً من أن النقد يبحث فيها مطولاً في الوقت الذي تكون الفكرة الأبسط، والظرف الأكثر عادية، هما وحدهما المصدر الذي يجب أن يوحي بالأعمال الفنية.

أما رواية "رامة الشيطان" بصورة خاصة، فبحكم أنني وضعت في مقدّمتها لوحة محفورة ل"هولباين" كانت قد صدمتني، وامام ناظري مشهد حقيقي كنت أراه في اللحظة نفسها أثناء موسم البذار، هو ما دفعني إلى كتابة هذه القصة المتواضعة، الواقعة وسط مناظر بسيطة كنت أتجوّل بينها كل يوم .

ولو طُلِبَ إليّ ماذا كنت أريد أن أفعل، لأجبت أنني كنت أبغي أن اخلق شيئاً جدّ مؤثر وجدّ بسيط، و لم انجح في تحقيق رغبتي. لقد رأيت الجميل في البسيط وأحسسته تماماً. إنّما رؤية الشيء وتصويره أمران مختلفان!وجماع ما يستطيع الفنان رجاءه على أفضل وجه،أن يلزم من لهم عيون بالرؤية ايضاً. إذاً انظروا البساطة بشكل خاص، وأنتم، أيها الآخرون[1]، انظروا السماء والحقول والأشجار،وانظروابالتحديد الفلاّحين بما فيهم من خيّر وحقيقي:سوف ترونهم قليلاً في روايتي،وسترونهم في الطبيعةبصورةأفضل بكثير.

جورج صاند

نوهان ١٢ نيسان ١٨٥١

---

(١) تقصد هنا البورجوازيين وأبناء المدن، والمفكّرين اللذين لم يكونوا يعرفون الجمال الحقيقي للطبيعة.



الفصل الأول

من المؤلف إلى القارئ

بعرق وجهك
تكسب حياتك البائسة
وبعد عمل وخبرة طويلَيْن
ها هو الموت يرافقك (١)

القصيدة الرباعية المكتوبة بالفرنسية القديمة، الموضوعة تحت لوحة للفنّان "هولباين"، ذات حزن عميق في بساطتها. تُظهر اللوحة المحفورة فلاّحاً يقود محراثه وسط حقل تمتدّ حوله حقول واسعة في البعيد. نرى فيها كوخاً بائساً، بينما تغيب الشمس وراء الرابية. إنها نهايةُ يومٍ شاقّ من العمل. الفلاّح العجوز المربوع القامة يرتدي ثياباً عتيقة، والأحصنة الأربعة المكدونة التي يسوقها أمامه هزيلة متعبة. السكّة تغوص في عمق الأرض الوعرة الصعبة، وكائن وحيد ذو حيوية ونشاط في هذا المشهد من العرق والضّنى . وهذا شخصٌ عجيب،

(١) هذه القصيدة مستوحاة من سِفر التكوين (٣) حيث يقول الربّ لآدم: بعَرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخِذتَ منها». الإصحاح الثالث.

هيكل عظمي مُسلَّح بكرباج، يركض بين خطوط الفلاحة إلى جانب الأحصنة المذعورة، يضربها ويعمل خادماً لحراث الفلاّح العجوز. إنّه الموت، هذا الشبح الذي ترجمه "هولباين" ببلاغةٍ في تسلسل الموضوعات الفلسفية والدينية،الكئيبة والمضحكة في آن معاً، المعنون بـ "ظلال الموت."

في هذه المجموعة، أو بالأحرى في هذا التركيب الواسع حيث الموت - اللاعبُ دورَه على الصفحات كافة - هوالرابط والفكرة المهيمنة، استحضر"هولباين" العظماء والمتبجّحين، والعاشقين واللاهين،والسكارى، والراهبات، والعاهرات وقطّاع الطرق، والفقراء، والمحاربين، والنُسَّاك واليهود، والجوّالين ، وكلّ الناس في عصره (١) وعصرنا، وشبح الموت في كلّ مكان يسخر، ويهدد ، وينتصر. ولايكتفي إلاّ من لوحة واحدة(١). وهي اللوحة التي تصوّر لِعازر(٢) . المسكين وهو نائم على مزبلةٍ عند بابِ الغنيّ، مُعلناً أنه لايخشى الموت، إذ ليس لديه ما يخسره، وما حياته سوى موتٍ سابقٍ لأوانه.

(١) يرى «ادمولد لوغوتيير» الذي قدّم للطبعة الفرنسية لرامة الشيطان وعلّق عليها أن لِهُولباين أكثر من لوحة يخلو موضوعها من الموت.

(٢) يظهر لِعَازر في الإصحاح /١٦/ من إنجيل «لوقا» (١٩-٣١)، كان مقروحاً، ومات من الجوع أمام باب الغني، فحملَتْه الملائكة إلى سيّدنا إبراهيم، حيث عاشَ في النعيم بينما دخل الغني النار. وصالد تلمّح إلى رباعية أخرى منقوشة مع لوحة «هولباين».

فهل كانت هذه الفكرة الرواقية للمسيحية نصف الوثنية لعصر النهضة عزاءً تاماً ، وهل وجدت فيها النفوس المتديّنة مبتغاها؟ إنّ الطَّمُوح، والمحتال، والظالم، والفاسق، كلّ هؤلاء الصيّادين المتعجرفين الذين يعبثون بالحياة، والذين يجرّهم الموت من جُمَّاتهم، سيكونون مباركين دون شك. لكنّ الأعمى المتسوّل، والمجنون والفلاح الفقير، هل سيعوّضهم عن بؤسهم المستديم اعتقادُهم الأوحد بأن الموت ليس شرّاً في نظرهم؟ لا! إنّ حزناً لايُقهر وحتميّة مرعبة تضغط على مُؤلّف الفنان. وهذا يشابه لعنةً مُرَّةً مصبوبة على مصير الإنسانية.

ها هنا، بالضبط، الهجاء الأليم، والتصويرالحقيقي للمجتمع الذي كان أمام عينيّ "هولباين". الجريمة والبؤس هما ما كانا يصدمانه، إنما نحن، فناني عصر آخر، ماذا سنصوّر؟ هل سنبحث في فكرة الموت عن تكريم الإنسانية الراهنة؟ وهل سنتضرّع إلى الموت من حيث هو عقوبة الظّلم وتعويض الألم؟

لا، لم تعد لنا قضية مع الموت ، إنما قضيّتنا مع الحياة . لم نعد نعتقد لا بِعَدميّةِ القَبْرِ،ولا بِسَلامٍ مُشترىً بِعُزوفٍ قسريٍّ(عن الدنيا)، نحن نريد أن تكون الحياة خَيِّرةً، لأننا نريدها أن تكون غنيّة. يجب أن يبرح "لِعَازر" مزبلته حتى لايعود الفقير يسعد لموت الغني، وينبغي أن يكون الجميع سُعداء، كي لاتكون سعادة أَحَدٍ جرائمية يلعنها اللّه. يجب أن يعرف الفلاّح وهو يبذر قمحه أنه يعمل لِصُنْع الحياة، وألايبتهج لذاك الذي يُحيط الموت بجانِبَيْه. وأخيراً يجب ألايكون الموت بَعْدُ لاعقوبةً للتكبرُّ، ولاسلوى للضيق، لأن اللّه لم يقدِّرْهُ لا

للمباركة ولا للتعويض، بل قدّرَهُ للحياة، لأنه بارك الحياة، ولايجوز أن يكون القبر ملجأً يُسمَحُ بأن نرسل إليه أولئك الذين لا نُريد أن نجعلهم سعداء.(١)

يَهيِمُ بعض فنّاني عصرنا ـ وهم يُلقون نظرةً جدّيّة على ما يحيط بهم بتصوير الألم، ودناءة البؤس، ومزبلة لِعَازر، فهل هذا مجال الفن والفلسفة؟ يمكن أن يكون هذا من ميدان الفنّ والفلسفة، لكن هل تتحقّق غايتهم بتعرية البؤس البشع، الخسيس والرذيل والجرائمي أحياناً، وهل أثر ذلك صحيّ دائماً كما يريدونه؟ نحن لانجرؤ على التصريح بشيء إزاء هذا. إنما نستطيع أن نُحدِّث أنفسنا بأنهم، مع إظهار هذه الهاوية المحفورة تحت التراب الهش للثراء، يُخيفون الغنيّ السيء، مثلما كانوا، في زمن الرّقص المأتمي(٢) ، يجعلونه يرى حفرته الفاغرة فاها، والموت مستعدٌ لربطه بين ذراعيه الوسخين(٣) واليوم نُريه السارقَ يخلع بابَه، والمجرمَ يترصَّدُ نومَه. ونُقِرُّ أننا لاندري كيف سنصالحه مع الإنسانية التي يحتقرها، ولا كيف نجعله يُحِسُّ ببؤسِ فقيرٍ يخشاه، ونحن نُريه هذا الفقير محكوماً بالأشغال الشاقّة وهارباً أو مُتسكّعاً ليليّاً. لم يجد الموت المرعب -- الذي

---

(١) تستقي صاند هذه الأفكار الإنسانية من دعوة صديقها المُصلح الإنجيلي «بيير لورّر» القائمة على العناية الاجتماعية الخيريّة.

(٢) أي العصور الوسطى حيث يظهر موكب يقودُه الموتُ نفسُه كما يصوّر الشعرُ وفنّ عمارةِ الآثار المسيحيان.

(٣) في اللوحة (١٠) و (٣٣) من « ظلال الموت»، يبدو الموت وهو يجرجر ضحاياه نحو «حفرة فاغرة».

يَصيرُ أنيابه، ويعزف على الكمان في صور "هولباين" وسابقيه – وسيلة، من هذا النوع، لهداية الفاسقين، ولتعزية الضحايا. أوَ يعني ذلك أنّ أدبنا لن يُفضي إلى قليل من هذا كما أفضى فنانو العصر الوسيط، وعصر النهضة؟

شاربو الخمرة في لوحات "هولباين" يملؤون كؤوسهم بجنون ليبعدوا فكرة الموت التي تخدمهم باعتبارها نديماً مع أنهم لايرونها. ويطلب أغنياء السوء هذه الأيام تعزيزات ومدافع لاستبعاد فكرة "الفلاّحين" الذين يُظهرهم الفن يعملون في الظلّ بل، على الأدقّ، ينتظرون لحظة الانقضاض على الواقع الاجتماعي. كانت الكنيسة في القرون الوسطى تستجيب لأخطاء جبابرة الأرض ببيع صكوك الغفران، وحكومة اليوم[1] تهدىء قلق الأغنياء بجعلهم يدفعون الكثير من رجال الدّرك، والسجانين، وكمائم الأفواه.

"ألبير دورير[2] "، و "مايكل آنجلو[3] "، و"هولباين" و "كالو[4] " و"غويا[5] "، خلقوا هجائيات قويّة لأخلاق عصرهم وبُلدانهم. إنّها لَمؤلَّفات

---

(١) أي حكومة «غيزو» رئيس حزب «المقاومة» ونصير الثورة، كان رئيساً للوزراء بين ١٨٤٧ – ١٨٤٨.

(٢) (١٤٧١ ١٥٢٨)، رسّام وحفّار ألماني جسّد في أعماله كثيراً من مَشاهد سِفْر الرؤيا.

(٣) (١٤٧٥ – ١٥٦٤)، الرسّام الإيطالي المعروف صاحب اللوحة الجدارية لـ «العشاء الأخير» في كنيسة «سيكستين».

(٤) (١٥٩٢ – ١٦٣٥)، من اللورين، رسم لوحة «عذابات الحرب».

(٥) (١٧٤٦ - ١٨٢٨)، رسام إسباني عَكَس في أعماله نكبات الحرب.

خالدة، وصفحات تاريخية ذات قيمة لاجدال فيها، إذاً نحن لانريد أن نُنكر على الفنانين حقّهم في سبر جراح المجتمع، وتعريتها أمام عيوننا؛ لكن ألا يوجد شيء آخر نفعله الآن غير تصوير الرعب والتهديد؟ في أدب الألغاز والجَوْر هذا حيث تَكَيَّفَ الخيالُ والموهبةُ مع ذوقِ العصر، نحن نُحِبُّ الرسوم العَذْبَة المُنْسَابة أكثر من تصوير الجرائم ذات الأثر المأساوي. فالأولى يمكن أن تبادر وتحمل معها الهداية؛ بينماالرسوم الأخرىتولّد الخوف،والخوف لايشفي من الأَثَرَةِ،بل يُفاقِمُها. نحن نعتقد أن رسالة الفن هي رسالة شعور وحبّ، وأن على رواية اليوم أن تحلّ محلّ حكمة أزمنة الساذجين وحشوهم، وأنّ للفنان مهمةً أوسع وأكثر شعرية من تلك التي تقترح بعض مقاييسِ الحذر والتوفيق لتخفيفِ الرُّعْبِ المستوحى من رسومه. يُستَحْسَن أن يكون هدفُه قائماً على جَعْلِ الآخرين يُحِبُّون موضوعات اهتمامه، ولن أُوبِّخه إذا هو جمَّلَها قليلاً عند اللزوم. فالفنّ ليس دراسةً للواقع الإيجابي، بل هو بحثٌ عن الحقيقةِ المُثلى(١) ، ورواية "وكيلُ ويكفيلد(٢) " أكثر فائدةً وسلاماً للنفس من روايَتَيْ "الفلّاحُ الفاسد(٣) " و "العلاقاتُ الخطيرة(٤) "

---

(١) كانت جورج صالد تُنادي بهذه النظرية في مرحلة معينة من مراحل تطوّر فنّها الروائي.

(٢) رواية تعليمية للكاتب«و. غولد سميث»(١٧٢٨ ١٧٧٤)، كتبها سنة ١٧٦٦.

(٣) رواية للكاتب الفرنسي « ريستيف دولابروتون»(١٧٤٣ - ١٨٠٦).

(٤) رواية للكاتب الإسباني « خوديرلوس دولاكلوس» (١٧٤١ ١٨٠٣) تجتمع الروايتان في التجسيد الفج لمفاسد القرن الثامن عشر، مما يُناقض المثالية الأخلاقية لِغولد سميث، ويَخْدِشُ حُشْمَة جورج صالد.

أيّها القارئ، سامحني على هذه الخواطر، وتفضّل بقبولها على أنها طريقة في التقديم. ولن يكون أيّ شيء منها في الأقصوصة التي سأحكيها لك، والتي ستكون قصيرة وبسيطة إلى حدّ أنني بحاجة إلى الاعتذار عن ذلك سلفاً ناطقةً لك بأفكاري حول القصص المرعبة.

لقد أُنْسِقْتُ وراء هذا الحشو بسبب فلاّح. فالقصة التي كنت أنوي أن أسردها لك هي،بالتحديد، قصة فلاّح، وسأسردها على الفور.

الفصل الثاني

الفلاحة

فرغتُ للتّوّ من النظر الطويل المترافق مع حزن عميق إلى فلاّح "هولباين"، وكنت أتنزّه في الريف، حالمةً بحياة الحقول، ومصير المزارعين. إنه لمن دواعي الحزن، دون شك، أن يبدّد الفلاح قواه وأيام حياته في شقّ صدر هذه الأرض الغيورة، ويقتلع كنوز خصوبتها لتكون قطعة خبز سوداء[1] وضخمة للغاية هي، في آخر النهار، التعويض اليتيم، والكسب الوحيد لعناء قاس ربما لايُحَدّ. بينما هذه الثروات التي يغطيها التراب، وهذا الحصاد، وهذه الثمار، وهذه الحيوانات المتغطرسة التي تسمن بين الأعشاب الطويلة، هي ملك لبعض الناس، وأدوات لتوليد التعب والعبودية لأكبر عدد من الفقراء.

(١) كان خُبْزُ الخدم والعُمّال الزراعيين المياومين يحوي نسبةً عالية من النخالة ولم يكن الفقراء يستعملون طحين القمح لأن كلفته في العام تبلغ ضعف ما يحصلون عليه من أجور.

لايرى في الحقول الذهبية، والمراعي الخلابة، والحيوانات الجميلة، سوى حقائب محشوّة بالنقود لن يكون نصيبه منها إلا ضئيلاً لايسدّ الرّمق، ومع ذلك، يجب أن تمتلىء هذه الحقائب اللعينة، كلّ سنة، لإرضاء المعلّم، ولدفع حقّ الحياة الفقيرة البائسة في حقله.

وإلى ذلك، الطبيعة فتيّة دائماً، وجميلة وسخيّة. تسكب الشعر والجمال على الكائنات كلّها، وعلى النباتات التي نتركها تنمو فيها بالأمل. إنها تملك سرّ السعادة، و لم يعرف أحد كيف ينتزعه منها. إن أسعد الناس هو من يمتلك علم شُغله، ويعمل بيديه، غارفاً السعادة والحرية من تدريب قوّته الخلاّقة، وهو من يتوفّر له الوقت ليعيش بقلبه وبعقله، وليدرك إبداعه، ويحبّ إبداع الله. ويعيش الفنان لحظات سعادة مشابهة في تأمّل جماليات الطبيعة، وإعادة صياغتها. لكنّ الفنان ذا القلب الرحيم والانساني سيضطرب وهو في أوج سعادته حين يرى بؤس البشر الذين يقيمون في هذه الجنة الأرضيّة. فالسعادة الحقيقية ستكون هنالك حيث يعمل العقل والقلب واليدان بتوائم تحت عين الرعاية الإلهية(١)، عندئذ قد يوجد انسجام مقدّس بين سخاء الله وحبور النفس البشريّة. وحينئذ، يمكن لرسّام الرموز أن يضع مكان الموت الفظيع لفلاّح يُرثى له، وهو يمشي بين خطوط الفلاحة(١) وكرباجه بيده، ملاكاً متألقاً يبذر على جانبيه القمح المبارك بملء يديه فوق خط الفلاحة (الطري) الذي يتصاعد منه البخار.

إنّ إنسان الفراغ* ، بوجه عام ، لايحب أشياءه لذاتها: لا الحقول، ولا المراعي، ولا مشاهدة الطبيعة، ولا الحيوانات الجميلة التي يجب أن تتحوّل إلى قطع من الذهب ليستخدمها، إنما إنسان الفراغ هذا يأتي ليبحث عن قليل من الهواء النقيّ والصحّة في مقرّه الريفي، ثم يعود إلى المدن الكبرى لِيُبذّر جهود مُرَابِعِيْه.

وَرَجُلُ العَمَلِ** يظلُّ، من جانبه، محصوراً، متألّماً، شديد الخوف من المستقبل إلى درجة أنه لايعود يشعر بجمال الحقول، وسحر الحياة الريفية. فهو لايرى في الحقول الذهبية، والمراعي الخلاّبة، والحيوانات الجميلة، سوى حقائب محشوّة بالنقود لن يكون نصيبه منها إلا ضئيلاً لايسدّ الرّمق، ومع ذلك، يجب أن تمتليء هذه الحقائب اللعينة، كلّ سنة، لإرضاء المعلّم، ولدفع حقّ الحياة الفقيرة البائسة في حقله.

وإلى ذلك، الطبيعة فتيّة دائماً، وجميلة وسخيّة. تسكب الشعر والجمال على الكائنات كلّها، وعلى النباتات التي نتركها تنمو فيها بالأمل. إنها تملك سرّ السعادة، و لم يعرف أحد كيف ينتزعه منها. إن أسعد الناس هو من يمتلك عِلْمَ شُغْلِهِ، ويعمل بيديه، غارفاً السعادة والحرية من تدريب قوّته الخلاّقة، وهو من يتوفّر له الوقت لِيَعِيْش بقلبه وبعقله، ولِيُدرك إبداعه، ويُحِبّ إبداع الله.

---

* L' Homme de loisir: تقصد « الإقطاعي».

** L' Homme de travail: تقصد « الفلاّح» .

ويعيش الفنان لحظات سعادة مشابهة في تأمّل جماليات الطبيعة، وإعادة صياغتها. لكنّ الفنان ذا القلب الرحيم والإنساني سيضطرب وهو في أوج سعادته حين يرى بؤس البشر الذين يقيمون في هذه الجنّة الأرضيّة. فالسعادة الحقيقية ستكون هنالك حيث يعمل العقل والقلب واليدان بتواؤم تحت عين الرعاية الإلهية(١) ، عندئذ قد يوجد انسجام مقدّس بين سخاء الله وحبور النفس البشريّة. وحينئذ، يمكن لرسّام الرموز أن يضع مكان الموت الفظيع لفلاّح يُرثى له، وهو يمشي بين خطوط الفلاحة(٢) وكرباجه بيده، ملاكاً متألقاً يبذر على جانبيه القمح المبارك بملء يديه فوق خط الفلاحة (الطري) الذي يتصاعد منه البخار.

وليس الحلم بوجود هادئ، وحرّ، وشاعري، وكادح، وبسيط بالنسبة لإنسان الحقول، صعباً على الادراك إلى درجة يجب عندها أن نَعْزُلَه وسط الأوهام. وما قولة "ڤرجيل" الحزينة: "ما أسعد إنسان الحقول لو كان يعرف سعادتهُ"(٣) ، إلا عزاء، كالعزاءات الأخرى. إلا أنها تنبُّؤ أيضاً. فسوف يأتي

---

(١) ما سبق من افكار جورج صاند ومشاعرها الإنسانية يوجب الإشارة إلى أن العناية الإلهية بمفهومها لا تتطابق مع العناية الإلهية بالمفهوم الكاثوليكي. فالله عندها هو إله دين «طبيعي» موروث من القرن الثامن عشر. وهذا ما سمّاه «جمال الدين الأفغاني» بمذهب الدهريين «النيتشرية» وردّ على أصحابه في «رسالة الردّ على الدهريين».

(٢) يأخذ « خطّ الفلاحة» دور شخصية هامة في روايات جورج صاند.

(٣) أنظر: ڤرجيل، الجورجيات، ج٢، ص.ص ٤٥٨ - ٤٥٩ (بالفرنسية).

يوم يستطيع الفلاّح فيه أن يكون فنّاناً كذلك، إن لم يكن من أجل التعبير عن الجمال (وهذا أمر قليل الأهمية أصلاً)، فعلى الأقل من أجل الإحساس به.

أَوَ يُعتَقد أن هذا الحدس الخفيّ للشّعر ليس موجوداً فيه سلفاً في طور غريزي، وهواجس غائمة؟ عند هؤلاء الذين يحميهم من الآن وصاعداً القليل من الرّفاه، والذين لايخنق طغيان البؤس كامل تطوّرهم الأخلاقي والعقلي، تكون السعادة الصافية، المحسوسة، والمُقوَّمة، في حالها البدائية[1] ؛ ومن جهة أخرى، إذا علت أصوات الشّعراء من قلب الألم والضّنى، فلماذا سَيُقال إنّ عمل اليدين غريبٌ عن وظائف الروح؟ لاريب في أن هذا الاستبعاد نتيجة عمل زائد وتعاسة عميقة. فلنكفّ عن القول إن الإنسان حينما يعمل باعتدال وإفادة، لن يعود لديه سوى ردئ العمّال والشعراء. فمن ينهل اللذائذ النبيلة من الإحساس بالشعر إن هو إلا شاعر حقيقي، حتى لو لم يَنْظِم بيتاً واحداً في حياته.

كانت أفكاري قد سلكت هذه السبيل، و لم أكن ألاحظ أن المؤثرات الخارجية تدعم في داخلي هذه الثقة بتربية الإنسان. كنت أتمشّى على تخم حقل يحضّره الفلاّحون لموسم الزّرع القادم. كان الأفق واسعاً كأفق لوحة

(١) تعالج جورج صالد الأفكار ذاتها في مقدّمة روايتها «فرانسوا لو شامبي» حيث تصوّر «نفس فلاح متدين، وحكيم يعمل ويكسب من تعَبه، ويسعد بحياته الخاصة، دون الشعور بالعوز، والرغبة في شيء، ودون امتلاك أية وسيلة يعبّر من خلالها عن دواخله».

"هولباين"، والمنظر رحيباً يؤطّر بخطوط كبرى من الخضرة المحمرّة قليلاً باقتراب الخريف هذه الأرض الفسيحة ذات اللون البني الغامق حيث تركت أمطارٌ حديثة في كلّ خطٍّ فِلَاحة خطوطاً من الماء تجعلها أشعة الشمس لامعة كأسلاك رقيقة من الفضّة. كان النهار دافئاً وصافياً، والأرض التي شقّتها سكّة المحراث بطراوة، تفوح ببخار خفيف. وفي أقصى الحقل رجلٌ عجوزٌ ظهره عريض ووجهه قاس يُذكّر بعجوز "هولباين"، لكنّ ثيابه لاتنمّ عن البؤس، يدفع محراثه القديم، يجرّه ثوران هادئان لونهما أصفر شاحب، إنهما سيّدا المروج الحقيقيان، قامتهما عالية، هزيلان قليلاً، قرونهما طويلة ومقطوعة، وقد خلق الاعتياد الطويل من هذين العاملين العجوزين أخوين، كما ندعوهما في أيامنا، إذا ماحُرم أحدهما من الآخر، يرفض العمل مع رفيق جديد، ويترك نفسه يموت من الكآبة.(1) أما الذين لايعرفون الرّيف فيتّهمون صداقة الثور مع رفيقه في الكَدْن بأنّها خرافة. فليأتوا ويروا في زاوية الاسطبل حيواناً بائساً هزيلاً، خائر القوى، يضرب بذيله المضطرب خاصرتيه الجرداوين، يزفر بذعر واحتقار على ما يوضع له من غذاء، تحملق عيناه دوماً في الباب وهو يضرب بقدميه المطرح الفارغ على جانبيه، يشمشم الأنيار والسلاسل التي حملها رفيقه، ويناديه دون توقّفٍ بخوارٍ يُثير الشفقة. ساعتئذ سيقول راعي الأبقار: "هذا فرد ضائع

(1) يَرِدُ ذلك في جورجيات فرجيل ج3 ص 517 - 518 (بالفرنسية): سَيَكدُن الفلاح بحزن عميق الثور الفتي الكئيب لموتِ أخيه».

من الأبقار، مات أخوه، لم يعد يعمل، وعلينا أن نسمّنه للذبح، إلا أنه لايريد أن يأكل، وعمّا قريب سيموت من الجوع."

كان الفلاّح العجوز يعمل ببطء، صامتاً، لايبذل جهوداً ضائعه، ولم تكن دوّابه بأسرع منه، إنما بفضل استمرارية العمل البعيد عن الشرود، وبفضل بذل قوىً شديدة ومتواترة، كان خطّ فلاحته يُشقّ بسرعةٍ خطّ ولده الذي كان على مَقْرُبةٍ منه، يقود أربعة ثيران أقلّ ضخامة، في قطعة أرض أكثر تصخُّراً وحجارةً.

ومالفت نظري فيما بعد كان حقّاً مشهداً جميلاً، وموضوعاً نبيلاً للوحة رسّام(١) . ففي الطرف الآخر للسهل المفلوح، كان رجلٌ شاب حسن الطّلعة يقود محراثاً عجيباً: أربعة أزواج من ثيران فتية داكنة مشوبة بسواد أصهب يتوهّج بالحمرة، برؤوس قصيرة مجعّدة لاتزال تُشعر بالثور الوحشي، وعيون غاضبة، وحركات عاصفة، وعمل مهيّج للأعصاب ومرهق للثور المتألّم من النيْر والمَسّاس ولاينصاع إلا بالارتجاف الغاضب تحت هيمنةٍ تفرَض عليه من جديد. وهذا ما يُدعى: الأبقار الحديثة الكُدْن. كان على الرجل الذي يقودها

---

(١) كان «موريس» إبن الكاتبة تلميذاً للرسام الانطباعي الفرنسي « دولاكروا» وكانت أمّة تحبّ أن يتخصّص في فن الرسم. وفي عام ١٨٤٩ عرضت «روزا بونور» لموريس لوحة: «فلاحةٌ على الطريقة النيفرنية». التي يُذكرّ موضوعُها بالمشهد الموصوف هنا.

أن يحرث زاوية تُركت حديثاً للرعي، مملوءة بالجذوع القديمة، إنه عمل بطل رياضي لاتكاد طاقته، وشبابه، وثيرانه الثمانية الحديثة الترويض تكفيه للقيام به.

وثمة طفل في السادسة من عمره، جميل كملاك، يجعله جلد الخروف الذي يغطّي كتفيه فوق السترة مشابهاً للقديس يوحنا المعمدان في رسوم عصر النهضة، كان يمشي بين الخطوط بموازاة المحراث، ينخز خواصر الثيران بقضيب طويل وخفيف في نهايته إبرة مطعّمة بقليل من الفولاذ. كانت الثيران المختالة ترتعش تحت يد الطفل الصغيرة، باعثةً من الأنيار والأطواق المربوطة على جباهها صريراً حاداً، وتاركةً على مقبض المحراث هزّات عنيفة. وعندما كان جذر من الجذور يُوقف سكة المحراث، يصرخ الفلاّح بصوت قويّ، منادياً كلّ ثور باسمه، ليهدّئهما وليس ليُثيرَهمـا . لأنّ الثيران المتضايقة من هذه المقاومة المفاجئة كانت تقفز حافرةً الأرض بأقدامها العريضة المظلّفة، وربما كانت ستُلقي بنفسها جانباً، وتحمل المحراث عبر الحقول لولا أن الفلاّح الشاب كان يضبط الثيران الأربعة الأولى بالصوت والمسّاس، بينما كان الطفل يقود الأربعة الأخرى. وبصرخ المسكين، هو الآخر بصوت يُريده مرعباً لكنه يبقى ناعماً كوجهه الملائكي. ذلك كلّه كان جميلاً جمالَ قوّةٍ أو جَمالَ لُطْفٍ: المنظر الطبيعي، الرجل، والطفل، والثيران تحت النيّر؛ وعلى الرغم من هذا الصراع الشديد الذي قُهرَتِ الأرض فيه كان هناك شعور من عذوبةٍ وهدوءٍ عميق يحلّق فوق الأشياء كلّها. ولمّا انزاحت العقبة، وأخذت الثيران مسارها المتوازن الرزين، كان الفلاح الذي لم يتصنّع العنف إلا للتمرّن على الدقّة وتصريف

النشاط، يتّخذ على الفور صفاء الأرواح البسيطة، ويُلقي نظرةَ غبطةٍ أبويّةٍ على طفله الذي كان يستدير ليبتسم له. وكان الصوت الرجولي لأب الأسرة الشاب هذا، يُدندن الأغنية السامية الحزينة التي نقلتها عادات البلاد القديمة ليس إلى الفلاحين جميعهم دون تمييز، بل إلى أكثرهم تحمّلاً في فنّ إثارة حماسة ثيران العمل وسَنْدِها. إن لهذه الأغنية التي يُحتمل أن أصلها كان يعتبر مقدّساً، وأنّه عُزِيَتْ إليها قديماً تأثيرات سحرية غامضة، منتشرة الآن، وتملك فضيلة محاورة جسارة هذه الثيران، وتهدئة استيائها، وقلْبِ ضيقها من عنائها الطويل إلى سكينة. فليس يكفي أن نعرف معرفة تامة كيف نقودها لشقّ خطوط مستقيمة تماماً ، أو أن نخفّف تعبها برفع السّكة أو بتعميقها في الأرض: فلن نكون فلاّحين حقيقيّين إذا لم نعرف كيف نغنّي للثيران؛ فالغناء هذا هو فنّ قائمٌ بذاته، يتطلب ذوقاً ووسائل خاصّة.

والحقّ أن هذه الأغنية ليست إلاّ ضَرْباً من التلحين يُقطَع ويُستأنف إرادياً. شكلها غير المنتظم، ونغماتها الخطأ بحسب قواعد فن الموسيقى، يجعلانها غير قابلة للترجمة[1] . لكنها ليست أقلّ شأناً من أغنيةٍ جميلة، متطابقةٍ حقاً مع طبيعة العمل الذي يرافقها، ومع مشية الثور، ومع هدوء الأمكنة الفلاّحية، ومع بساطة الفلاّحين الذين ينشدونه، حيث تعجز أية عبقرية غريبة عن العمل في الأرض، عن إبداعها، ويعجز أي مغنّ آخر غير فلاّح هذه المنطقة الخبير أن

(١) أي لا يمكن أن تكتب في رموز موسيقية، وقد جرّب «شوبان» فعلاً أن يكتب ألحاناً بعض منها.

بَعيدَ غناءها. فعندما لايكون في الريف خلال فصول السنة عمل وحركة إلا الفلاحة، تتصاعد هذه الأغنية العذبة المؤثّرة كصوت النسيم التي تخلع عليها نغمتُها الخاصة شَبَهاً أكيداً به. إذ تعلو النغمة النهائية الثابتة أو المهتزّة لِكلّ جملة، برُبْع لحنٍ منحرفة باطّراد. هذا غريب، لكنّ سحره لايوصف، وإذا ما اعتدنا سماعه، لانتصوّر أن أيّ غناء آخر يمكن أن يتصاعد في هذه الساعات، وتلك الأمكنة دون أن يشوّه انسجام الطبيعة.

إذاً صادف أنني كنت أرى لوحة تتناقض مع لوحة "هولباين"، مع أن المشهد واحد. إنما بدل العجوز الحزين، يوجد رجل شاب معافى، وبَدَلَ كَـدْنِ الأحصنة الضامرة المنهوكة، زوجٌ رباعيٌّ من ثيرانٍ ضخمةٍ تشتعل حيويةً، وفي مكانِ الموت طفلٌ رائع، وبدل صورة اليأس، وفكرة التهدّم، هناك مشهد من طاقة، وفكر وسعادة.

حينئذ عادت القصيدة الرباعية الفرنسية "بعرق وجهك ...الخ"، ومقطوعة ڤرجيل "ما أسعد إنسان الحقول ..."، إلى خاطري، وعلى مرأى هذا الزوج الجميل للغاية، الرجل والطفل، يقومان في ظروف شاعرية وبكثير من اللطف المتّحد مع القوة، بعملٍ عامر بالعظمة والسمو، شعرتُ بشَفَقَةٍ عميقة ممزوجةٍ باحترام غير إرادي. ما أسعد الفلاح! أجل، قد أكون سعيدةً سعادته دون شك، لو أن ذراعي غدا ضخماً على، الفور، وصدري قوياً، يتمكّنان بذلك من إخصاب الطبيعة، والغناء لها دون أن تتوقّف عيناي عن الرؤية،

ودماغي عن استيعاب تناسق الألوان والأصوات، ورقّة النغمات وانسياب الخطوط، وبكلمة واحدة عن استيعاب جمال الأشياء الخفيّ! ودون أن يكفّ قلبي خاصّة عن أن يكون على علاقة مع الشعور الإلهي الذي ساد الإبداع الخالد الجليل.

لكن، واأسفاه! لم يدرك هذا الرجل أبداً سر الجمال، ولن يفهمه هذا الطفل إطلاقاً! ليَحْمِني الله من الاعتقاد أنهما ليسا أرقى من الحيوانات التي يقودانها، وأنهما لايملكان، في بعض الأحيان، ضرباً من الانتشاء الملطّف لِتَعْبِهِمَا، والمهدىء لهمومهما! فأنا أرى على جبهتَيْهما النبيلتَيْن خاتم الرَّبِّ، لأنهما وُلِدا مَلِكَيْن للأرض أفضل بكثير من الذين يملكونها لأنهم اشتروها. والدليل على إحساسهما بذلك، أن ابتعادهما عنها لايحصل طواعية ودونما قهر، فهما يُحبّان هذا التراب المرويّ بِعَرَقهما، والفلاّح الحقيقي يموت في الجندية شوقاً وهو بعيد عن الحقل الذي رآه يولد. إنما ينقُص هذا الإنسان نصيب من المُتَع التي أمتَلِكُها، وهي مُتَعٌ غيرُ مادية ربَّما كانت من حقّه هو، عامل المعبد الواسع(الطبيعة) حيث تبلغ السماء من الاتساع مايجعلها تلامسه. تنقصه معرفة شعوره. ذلك أن أولئك الذين حكموا عليه بالعبودية منذ كان في بطن أمه، استطاعوا أن يجرِّدوه من تفكيره، وإن لم يستطيعوا تجريده من أحلامه.

حسناً! الفلاح كما هو، بنواقصه،وبكونه محكوماً بطفولة أبدية، لايزال أجمل من ذلك الذي خَنَقَ العِلْمُ شعورَه. فلاتتعالوا عليه، أنتم أيّها المعتقدون

بامتلاككم لحق شرعي غير قابل للتقادم، في قيادته، لأن الخطيئة القاتلة التي تتمرّغون فيها تدلّ على أن عَقْلَكُم قتل قَلْبَكُم، وعلى أنكم الأكثر نقصاً، والأكثر عمىً من بين الناس!... فأنا أحب أيضاًهذه البساطة في روحه أكثرمن الأنوار الزائفة في أرواحكم ، ولوقُيِّضَ لي أن أكتب قصة حياته، فسأكون أكثر اغتباطاً بكشف جوانبها العذبة المؤثّرة من أن أرسم ماتستحقّونه من دناءة يمكن أن يعجل بها ازدراء قواعدكم الاجتماعة ومشقّاتها.

كنت أعرف هذا الرجل الشاب، وهذا الطفل الرئع، وأعرف قصتهما لأن لهما قصّة، ولكل إنسان قصّته، وأي فرد يمكن أن يشغل رواية بحياته الخاصّه إذا كان قد فهمها ...وجرمان، مع أنه مزارع وفلاّح بسيط، حسب حساب واجباته وعواطفه. وحكاها لي بسذاجة، ووضوح، وأصغيت إليه باهتمام. ولما رأيته يحرث لوقت طويل نسبياً، قلت لنفسي: لماذا لا تكون قصّته مكتوبة، حتى لو كانت قصة بسيطة بساطة خط الفلاحة الذي كان يرسمه بمحراثه، ومستقيمة استقامته، وقليلة التزيين كَقِلَّة تزيينه.

في السنة القادمة سيصير هذا الخط مملوءاً، يغطّيه خط فلاحة جديد. وهكذا ينطبع أثر أغلب الناس ويختفي من حقل الإنسانية قليل من التراب يمحوه، وتتالى الخطوط التي حفرناها بعضها بجانب بعضها الآخر كما القبور في المقبرة. وخط الفلاح ألا يساوي خطَّ العَدَم، الذي له اسم رغم ذلك، اسم سيبقى، إذا خلق قليلاً من الضجة في العالم بتفرُّدِهِ، أو بعبثيةٍ أيّاً كانت؟...

حسناً! إذا أمكن، لنتنزع من عدمّية النسيان خطّ فلاحة"جرمان" الفلاح البارع. فهو لن يعرف عنه شيئاً، ومن النادر أن يشغله الأمر، ولكنني سأتمتع بمحاولة الكتابة عنه.

الفصل الثالث

الأب موريس

قال له حَمْوُهُ ذات يوم: "ياجرمان عليك أن تقتنع، مع ذلـك، بـالزواج ثانيةً. فعمّا قريب تمضي سنتان على تَرمُّلك من ابنتي، وعمـر ابنـك البكـر سبع سنوات. وأنت توشـك علـى الثلاثـين يـاولدي، وأنـت تعلـم أن الرجـل الـذي يتجاوز هذا السِنّ في بلادنا يعتبر عجوزاً على الزواج. عندك ثلاثـة أطفـال مـن أحسن مايكون، وحتى الآن لم يزعجونا. فزوجتي وكنّتي اعتَنَتا بهـم وشَغَفَهُما، وأحبّتْهما كما يجب. ها هو "بيير" الصغير قـد شـبَّ تقريبـاً، إنـه يحـثّ الثيران برفق؛ وله من الحكمة مايجعله يرعى الحيوانات في المُرْج، ومن القـوّة مايسـاعده على قيادة الأحصنة إلى المنهل.

إذاً ليس هذا من يُقلِقنا؛ إنما الإثنان الآخران، اللذان نحبّهمـا رغـم ذلـك، الله يشهد، واللذان يسبّبان لنا هذه السنة كثيراً من الهمّ. كنّـتي علـى وشـك أن تَلِدَ، وعلى ذراعيها أيضاً طفل صغير. وعندما سيأتي الطفل الـذي ننتظـره، لـن

تكون قادرة على الانشغال بصغيرتك "سولانج"(١) ، وبابنك "سيلفان" خاصّة، الذي لم يبلغ الرابعة من عمره، ولايهدأ إلا نادراً لا في النهار ولا في الليل. إنه كتلة من دمٍ نشيط مثلك: سيكون عاملاً ممتازاً، لكنه طفل فظيع، زوجتي لم تعد تستطيع الجري وراءه بسرعة كافية للإمساك به وهو ينطلق من جانب الخندق، أو عندما يُلقي بنفسه بين أقدام الدواب. ومع قدوم الطفل الذي ستلده كنّتي، سيُلقى حِمْلُ أخيه السابق على عاتق زوجتي خلال سنة على الأقل. إذاً، أولادك سيقلقوننا، وسيحمّلوننا فوق طاقتنا. ونحن لانحبّ أن نرى أطفالاً لايُعتنى بهم جيداً؛ وعندما نفكّر بالحوادث التي يمكن أن تحصل لهم، بسبب نقص رعايتهم، لايرتاح بالنا. تلزمك إذاً امرأة أخرى، وتلزمني كنّة ثانية. فكّر بذلك ياولدي. لقد نبّهتك عدّة مرات سابقاً، والزمن يمضي، والسنين لاتنتظرك أبداً. أنت مدين لأطفالك ولنا نحن الذين نتمنّى أن يسير كل شيء في المنزل على مايرام، وأن نزوّجك ثانية في أقرب وقت

– أجاب الصهر، حسناً ياعمّي، ينبغي إسعادكم إذا كنتم تريدون ذلك كليّاً. لكني لا أريد أن أخفي عنكم أن هذا سيسبّب لي الكثير من الضّنى، وأنّه لم يعد لي من أمل في هذه الحياة إلا بإغراق نفسي. فالمرء يعرف من يخسر، ولا يعرف من يلاقي. لقد كانت لديّ زوجة طيّبة، وجميلة، ولطيفة، وحسورة، محبّة لأهلها ولزوجها، وأطفالها، وفيّة للعمل، والحقول خبيرة في شغل البيت،

---

(١) كانت جورج صاند قد سمّت ابنتها «سولانج». انظر: المقدّمة.

مستقيمة في عملها. وفي النهاية كانت ماهرةً في كل شيء، ولما زوّجتني إيّاهـا، وتزوّجتها، لم نضع في شروط اتفاقنا أنني سأنساها إذا ماَنكِبْتُ بفقدانها.

--ماتقوله هنا دليل قلبك الطيّب ياجرمان؛ استأنف الأب موريس: أعرف أنك أحببْتَ ابنـتي، ووفّرْتَ لها السعادة، ولو أنك استطعت إرضاء الموت ليأخذك بديلاً منها، كانت "كاترين" الآن على قيد الحياة، وأنت في المقبرة. كانت تستحقّ حبّك إلى هذا الحدّ، وإذا كنت لاتتعزّى عنها بشيء، فنحن كذلك أيضاً. لكني لا أطلب منك نسيانها. إنما أراد الله أن تفارقنا، ولا يمضي يوم دون أن نُعلمها بصلواتنا، وأفكارنا، وأقوالنا، أننا نحترم ذكراها، ويلفّنا الأسى على رحيلها. غير أنها لو كان لها أن تكلّمك من العالم الآخر وتعبّر لك عن إرادتها، لطلبت إليك البحث عن أمّ لصغارها اليتامى. إذاً المسألة مسألة إيجاد امرأة جديرة بأن تحلّ محلّها. ولن يكون ذلك سهلاً، لكنه ليس مستحيلاً، وعندما ستجدها لك ستحبّها كما كنت تُحِبُّ ابنتي، لأنك رجلٌ شريف، وستكون ممتناً منها إذا أسدت إلينا خدمةً محبّةٍ أطفالك..

-خيراً، يا أب موريس، يقول "جرمان"، سأنفّذ ماتريدون كما فعلت دائماً.(١)

---

(١) كانت لِعميد الأسرة في وسط فرنسا سلطة قوية جداً، لأنه يمثّل ضرباً من البطريركية: آراؤه مسموعة، وإرادته سائدة.

- هذا إنصاف تستحقّه ياولدي طالما أنك أصغيت لملاطفة عميد أسرتك، ولنصائحه فلنفكّر معاً في اختيار زوجتك الجديد. أولاً لستُ مع زواجك من امرأة شابّة، فليست هي من تلزمك. البنت الشابة طائشة، وتربية ثلاثة أطفال عبء كبير، وعندما يكونون من أمّ أخرى خاصّة، مما يتطلّب نفساً هادئة، وحكيمة، ورقيقة للغاية، وميّالة جدّاً للعمل. إذا لم تكن زوجتك في مثل سنّك فلن يكون لديها مايكفي من العقل لِتَقبل واجباً كهذا. ستجدك مُعمّراً، وستجد أطفالك صغاراً جدّاً. سوف تندب نفسها، وأطفالك سيعانون الأمرّين.

- هذا بالضبط مايقلقني، يقول جرمان، فماذا لو انتهى هؤلاء الصغار المساكين إلى المعاملة السيئة، والزجر والضرب؟

-لاسمح الله! أجاب الشيخ، فالنساء الشريرات في بلادنا أقلّ بكثير من الخيّرات، ومن الجنون ألا يضع المرء يده على المراة المناسبة.

-هذا صحيح يا أبي: في قريتنا بنات طيّبات. فيها "لوزي"، و "سيلفين" و"كلودي" و"مارغريت"، ومن ترغبون بها في النهاية.

- مهلاً، مهلاً، ياولدي، جملة البنات اللواتي ذكرتهنّ إما صغيرات جداً، وإما فقيرات جداً...وإما جميلات للغاية؛ وينبغي التفكير بهذا أيضاً في النهاية ياولدي. فالمرأة الجميلة ليست دائماً حسنة السلوك كامرأةٍ أخرى غير جميلة.

-تريدون إذاً أن أتزوّج امرأة قبيحة؟ قال جرمان مع قليل من الاضطراب.

-ليست قبيحة تماماً؛ لأنّها ستهبك أطفالاً، وليس أبعث على الحزن من أن يكون للإنسان أطفال قبيحون، وهزيلون معلولون. إنّ من سوف تلائمك هي زوجة ناعمة، ذات صحّة جيّدة، لاجميلة ولا بشعة.

-قال جرمان مبتسماً بشيء من الأسى: أرى من الملائم أن إيجاد المرأةالتي تريدونها يوجب أن تُصنع صنعاً بحسب الطلب: ولا سيّما أنكم لا تريدونها فقيرة إطلاقاً، وأنّ الزواج من الغنيّات ليس سهلاً ولرجل أرمل خاصّةً.

- وإذا كانت هي نفسها أرملة ياجرمان؟ أرملة ليس عندها أطفال وتملك ثروة معقولة؟

-في الوقت الحاضر لا أعرف واحدة كهذه في ناحيتنا.

-ولا أنا، ولكنها موجودة في مكان آخر.

-هل في ذهنكم واحدة، يا أبي، إذاً قل لي فوراً من تكون"



الفصل الرابع

جرمان الفلّاح البارع

"أجاب الأب موريس: نعم، في ذهني واحدة، بنت "ليونارد" أرملة رجل غاروني، تقيم في "فورش"[(١)]

-قال جرمان بخضوع وحزن تزايد شيئاً فشيئاً: أنا لاأعرف المرأة ولاالمكان.

-تُدعى" كاترين" كفقيدتك.

(١) تبعد فورش حوالي /١٢/ كم إلى الشمال الغربي من نوهان.

-كاترين؟ سيلذّ لي أن أنطق بهذا الاسم: كاترين! ومع هذا، سيسبب لي ذلك الكثير من الغمّ إذا أنا لم أستطع أن أحبّها كما أحببت الأخرى، ستذكّرني بها غالباً.

-أقول لك سوف تحبّها: إنها إنسانة جيدة، وسعيدة ذات قلب كبير، لم أرَها منذ زمن ، عندما رأيتها آخر مرّة لم تكن بنتاً قبيحة، إلا أنها لم تَعُد شابّة، فعمرها الآن اثنتان وثلاثون سنة. تنحدر من عائلة طيّبة، أفرادها جادّون، وتملك من الأرض ما ثمنه من ثمانية الى عشرة آلاف فرنك، ستبيعها راغبةً لتشتري بثمنها أراضي أخرى في المكان الذي ستقطنه، لأنها تحلم ايضاً بالزواج ثانية، وأنا أعرف، فيما لو ناسبها طبعك، أنها لن ترى وضعك رديئاً.

-إذاً لقد رتّبتم ذلك كلّه سلفاً

-نعم، ماعدا رأيكما أنت وهي، وهذا ما يجب أن يطلبه كلّ منكما من الآخر، بالتعارف. والد هذه السيدة قريبي من بعيد، وكان صديقاًحميماً. وأنت تعرفه جيداً،إنه الأب ليونارد؟

-نعم، رأيته يكلّمكم في الأسواق، وفي السوق الأخيرة تناولتما طعام الغداء سويّة، إذاً بهذا الأمر كان يحاوركم لوقتٍ طويل؟

دون شك، كان ينظر إليك وأنت تبيع دوّابك ولاحظ أنك تلمّ بالبيع جيداً، وأنك صبيّ بهَيْئَةٍ حسنة، تبدو نشيطاً خبيراً، ولما قلت له كل شيء عنك، وكيف تتصرّف معنا منذ ثماني سنوات نعيش ونعمل معاً، دون أن تكون بيننا كلمة عتبٍ أو غضب، وضع في رأسه أنّه سيزوجك ابنته، مما يناسبني أيضاً، وأعترف لك بذلك على هوى سمعتها الطيبة، وشرف عائلتها، والأملاك الجيدة التي أعرف قيمتها .

-يا أب موريس، أرى أنّكم تعوّلون قليلاً على الأملاك الجّيدة.

-لاشك في أنني أتمسّك بها، وأنت، الاتتمسّك؟

--أتمسّك إذا شئتم، لإرضائكم؛ لكنكم تعرفون أنني، من جانبي، لا يضايقني ما يعود عليّ، أو ما لايعود من أرباحنا. وأنا أعرف الأرض، والثيران، والأحصنة، والمحاريث، ومواسم البذار، والدرّيس، وحشّ الحشيش. أما الخراف، وأشجار الكرمة، والبستنة، والعوائد الصغيرة، والزراعة الناعمة فأنتم تعرفون أنها شأن ابنكم، وأنا لا أتدخّل فيها كثيراً, وفيما يتعلّق بالنقود، ذاكرتي ضعيفة وأودّ لو أتخلّى عن كل شيء ولا أتجادل حول نقودك ونقودي. وأخشى أن أغلط وأطلب ماليس من حقي، وحينما لاتكون القضايا بسيطة واضحة، أضيع فيها تماماً.

-اسوء الحظ، ياولدي، وهاهو السبب الذي من أجله ارغب بأن تجد زوجة راجحة العقل كي تحلّ محلّي بعد موتي. فأنت لم تنشأ أن تفتح عينيك على حساباتنا، وقد يقودك ذلك إلى مضايقاتٍ في علاقتك مع ابني حينما لن أكون بينكما لأوفّق رايكما واحدّد لكلّ منكما نصيبه.

– بعد عمر طويل يا أب موريس، لكن لاتقلقوا مما سيحصل بعد موتكم، لن أخاصم ابنكم أبداً، فثقتي بـ "جاك" مثل ثقتي بكم تماماً، ولما كنت لا أملك أرزاقاً، وكان كلّ ما يمكن أن أجنيه عائداً عليّ من ابنتكم، وهو مِلْكٌ لأطفالنا، استطيع أن أكون مطمئناً، وانتم أيضاً؛ لأنه يحُبّهم كما يحبّ نفسه.

--معك حق في ذلك، ياجرمان، جاك ولد طيّب، وأخ وفيّ، ورجل يحب الحقيقة. إلا أنّ جاك قد يموت قبلك، قبل أن يشبّ أطفالك عن الطوق، والحال أن من الواجب التفكير بعدم ترك القاصرين، في عائلة من العائلات، دون كبير يرشدهم ويسوّي خلافاتهم. وإلا فإن رجال القانون سيحشرون أنفسهم بقضاياهم، يشوّشون أمرهم جميعاً، ويجعلونهم يضيّعون كلّ شيء في المحاكم. وعليه، يجب ألا نفكّر بزيادة شخص جديد على عائلتنا، رجل أم امرأة، دون أن نضع في بالنا أن هذا الشخص قد يكون عليه أن يرعى تصرّفات حوالي ثلاثين طفلاً، وحفيداً، وصهراً، وكنّة، ويدير شؤونهم...فلا أحد يعرف إلى أيّ حد تنمو العائلة وتتكاثر، وعندما تغصُّ خلية النحل، ينبغي أن تتفرّق نحلاتها، وأن تفكّر كلّ نحلة بحمل عسلها. وأنا حينما اتخذتك صهراً لي، رغم أن ابنتي

كانت غنية وأنت فقيراً، لم اوبّخها لأنها أختارتك. كنت أراك تعمل جيّداً، كما لو كنت أعلم أن أفضل ثروة لأهل الأرياف مثلنا، يدان كيديك وقلب طيّب كقلبك، وعندما يمتلك رجلٌ مثل هذا في عائلة ما، فهذا يكفي. أما المرأة فأمرها مختلف: عملها في البيت جيّد للمحافظة عليه، وليس جيّداً لكسب لقمة العيش. ومن جهة ثانية، في الوقت الحاضر بصفتك أباً تبحث عن زوجة، عليك التفكير بأن أطفالك الجُدد الذين لن يكون لهم نصيب من إرث زوجتك الأولى، سينتهون إلى الفاقة فيما لو مُتّ أنت، اللهم إلا إذا كانت زوجتك، من جانبها، تملك بعض الأرزاق. ثم إنّ الأطفال الذين ستزيدهم عائلتنا سيكلّفون بعض الشيء لإطعامهم. فإذا تحمّلنا عبء ذلك بمفردنا، سنُطعمهم، بالتأكيد، ودون شكوى؛ لكن كفاية الجميع ستتناقص، وسيكون للأطفال القدامى نصيبهم من الحرمان نتيجة ذلك . فحينما تتكاثر العائلات زيادة على الحدود، دون أن يزداد دخلها بما يعادل زيادة أفرادها، يأتي الفقر، مهما كنا شجعاناً في تصريف أمورنا. هذه هي ملاحظاتي ياجرمان، زُرْها، وحاول أن تنال إعجاب الأرملة غيران؛ لأن سلوكها الحسن، وأموالها سيحملان إلينا العون في الوقت الحاضر، والطمأنينة في المستقبل.

-سمعا، أيها الأب، سأحاول أن أرضيها، وأن ترضيني.

-لذلك، يجب أن تراها، وتسعى للبحث عنها.

- أي قريتها؟ في فورش، إنها بعيدة من هنا أليس كذلك[1] ؟ ونحن لانملك الوقت للتجوال خلال هذا الفصل.

- عندما يتعلق الأمر بزواج عن حبّ، فعلى المرء أن يتوقّع تضييع الوقت، لكن عندما يكون الزواج زواج عقل بين شخصين متحرّرين من النزوات، ويعرفان ماذا يريدان، فهذا أمر مضمون سلفاً، غداً يوم السبت، ستقصّر نهار الفلاحة قليلاً، وستذهب بعد حوالي ساعتين من الغداء، وستكون في "فورش"[2] مع حلول الليل، القمر بدْر هذه الأيام، والدروب سالكة واضحة، وليس أمامك أكثر من ثلاثة فراسخ بمقاييس بلدنا. وفورش قريبة من قصر "مانييه". ثم إنك سترحل على الفرس.

- أحِبّ أن اذهب ماشياً في هذا الطقس المنعش.

-أجل ! ولكنّ الفرس جميلة، وسيكون للعريس الذي يمتطيها مظهر أفضل. سترتدي لباسك الجديد، وستحمل طريدة طريّة إلى الأب "ليونارد". ستصل إليه من طرفي، وتتحدّث معه، وتُمضي نهار الأحد مع ابنته، وصباح الأثنين تعود بجواب (نعم) أو (لا).

---

(١) لم يكن الفلاح الفرنسي في القرن التاسع عشر يحب السفر، أو التنقّل خارج قريته وما يُجاورها.

(٢) قصر Magnier، يبعد عن «فورش» ١٥٠٠م على الضفة اليُمنى للآندر.

-سمعاً وطاعة، أجاب جرمان بهدوء، ومع ذلك لم يكن مُطمئِنّاً تماماً.

عاش جرمان دائماً بحكمة. كما يعيش الفلاّحون الكادحون. ولما تزوّج في سن العشرين، لم يعشق سوى امرأة واحدة في حياته، ومنذ غدا أرمل، لم يمازح إمرأة أخرى لاتصرّف متهوّر، ولا بروح من الدعابة. لقد حمل في قلبه بوفاء أسفاً عميقاً، و لم يُلق بتبعاته على كاهل حَمْوِه دون خوف وحزن؛ غير أن الحَمْوُ كان يرعى العائلة دوماً برويّة وحكمة، وجرمان الذي وهب نفسه كلّها للعمل المشترك، وبالتالي للذي يجسّده، أي للأب موريس، لم يكن يتصوّر أنه يستطيع أن يتمرّد على الأسباب الموجبة، وعلى مصلحة الجميع.

يَبْدُ أنه كان حزيناً. وقليلة هي الأيام التي كانت تمضي دون أن يبكي فيها زوجته بالسرّ، كان خوفه من زواج جديد يفوق رغبته في التخلّص من كآبته. يحدّث نفسه بغموض بأن الحبّ استطاع أن يواسيه لّما أتاه بغتةً ، فالحبّ لايواسي بغير هذه الطريقة. ولا نجده حينما نبحث عنه، فهو يأتي إلينا عندما لانتظره. ومشروع الزواج البارد هذا الذي أطلعه عليه الأب موريس، وهذه الخطيبة المجهولة، هي وربّما كل الجودة التي كان يقولها له عن عقلها وفضيلتها، شغلا رأسه. فانصرف مفكّراً كما يفكر الذين ليس لديهم مايكفي من أفكار لتصطرع فيما بينها، أي أنه لم يكوّن لنفسه أسباباً مقنعة ليقاوم أو ليُرضي أنانيته، إنما راح يُعاني من ألمٍ بهيم، لايُكافح ضدّ شرّ أُرْغِمَ على القبول به.

ومع ذلك كان الأب موريس قد عاد إلى الإكارة[1] على حين كان جرمان عند المغيب يشغل آخر ساعة من النهار بإغلاق الثغرات التي فتحتها الخراف في طرف سياج في جوار البيوت. يرفع سيقان الأشواك ويدعمها بكُتَل من التراب، بينما كانت عصافير السُّمّان تزقزق في الدّغل المجاور وكأنها تناديه ليسرع، وكانت فضولية بمجيئها لامتحان عمله قُبَيْل رحيله.

---

(١) La métairie «الإكارة» أرض مُستاجرة يتقاسم عوائدها كلّ من المستاجر والمؤجِّر بنسبة ٥٠٪، وهذا ما يُسمّى بـ «المُزارعة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

الأرملة "غِيِّيت"

لَقِيَ الأب موريس في بيته جارةً عجوزاً كـانت قـد جـاءت تتحـدّث مـع زوجته وهي تطلب جمرةً لِتُشعِلَ ناراً. كانت السيدة "غيّيت" تســكن في كـوخٍ بائسٍ جداً على بعد مائة متر من المزرعة. ولكنها مُنظِّمـة وإرادتهـا قويـة. كـان بيتها الفقير نظيفاً ومعتنى به، وثيابها مرتّبة باهتمـامٍ يَنِـمُّ عـن احترامهـا لنفسـها وسط هذه الشدّة.

"أتيتِ تبحثين عن نار المساء يا سيِّدة "غِيِّيـت"، قـال لهـا العجـوز، فهـل تريدين شيئاً آخر؟"

-لا يا أب موريس، أجابت، لا أريـد شيئاً الآن، لسـت متسـوّلة، كمـا تعرفون، ولا أُسرِف في الاستعانة بخير أصدقائي.

-إنها الحقيقة، وأصدقاؤك أيضاً حاضرون على الدوام لخدمتك.

-كنت اتحدّث مع زوجتكَ، وأسألها عما إذا كان جرمان قد عزم على الزواج مرّة أخرى.

– أنتِ لست ثرثارة، ونستطيع أن نتكلّم أمامك دون خوفٍ من الأقاويل، لذلك أُخبر زوجتي وأُخبرك أن جرمان قد عزم على ذلك نهائياً، وسيتوجّه غداً إلى الفورش.

-ساعة خير! صرخت السيِّدة موريس، يالهذا الولد المسكين! إن شاء الله يجد زوجة طيبة وشجاعة مثله!

-آ، سيذهب إلى فورش؟ لا حظت السيِّدة "غِيِّيت"، تصوّروا كيف اتّفق الأمر! هذا يُلائمني كثيراً، ولما كنتم قد طلبتم إليّ قبل قليل فيما لو كنت أريد شيئاً، سأقول لكم، يا أب موريس، من أية جهة يمكنكم إجباري على الطلب.

-قولي، قولي، أنُجبرك، ونحن نريد أن تطلبي!

-أودُّ أن يتحمَّل جرمان مشقّةَ اصطحابِ ابنتي معه.

-أين؟ إلى "فورش"؟

-ليس إلى "فورش"، إنما إلى مزارع "أورمو"، حيث سَتُقيم بقيّة السنة.

- كيف! تقول السيّدة موريس، أتهجرين ابنتك؟

- يجب أن تعمل خادمةً، وأن تَكْسَبَ شيئاً ما. هذا يُزعجني ويُزعجها كثيراً، المسكينة! لم نستطع أن نقرّر فراقنا في موسم "القدّيس يوحنا"(١) وها هو موسم "القديس مارتان(١) " يحلّ وقد وجدت مكاناً ممتازاً لتعمل راعيةً في مزارع "أورمو". لقد كان صاحب المزارع ماضياً من هنا في أحد الأيام، أثناء عودته من السّوق. فرأى ابنتي "ماري" التي كانت ترعى خرافها الثلاثة في أرض الشركة(٢) "لم تعودي مشغولة ياصغيرتي، قال لها، وثلاثة خراف لراعية ليسوا شيئاً يُذكر. فهل تريدين رعي مائة خروف؟ وأصطحبك معي. لأن راعية منطقتنا مريضة، وستعود إلى أهلها، ولو أردتِ أن تكوني عندنا قبل ثمانية أيّام فسيكون لك خمسون فرنكاً(٣) . لبقية السنة حتى موسم القدّيس يوحنا". البنت رفضت، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في الموضوع، وإعلامي به عندما عادت في المساء إذ رأتني حزينة، متضايقة من قضاء فصل الشتاء الذي سيكون قاسياً وطويلاً؛ فقد شاهدنا طيور الكركي والإوز البري تعبر أجواءنا هذه السنة قبل شهر كامل من موعد هجرتها المعتاد. بكينا نحن

(١) القديس يوحنا (٢٤ حزيران)، والقديس مارتان (١١ تشرين الثاني)، هما الموعدان اللذان كان يتم استئجار الخادمات

(٢) أرض تعود ملكيتها إلى جميع أهل القرية، ويستخدمها الفقراء مراعيَ لمواشيهم.

(٣) بحسب جورج صاند كان الخادم في المزرعة يتقاضى سنة ١٨٤٤ عشرين فلساً في اليوم خلال فصل الصيف، وعشرة فلوس في اليوم خلال فصل الشتاء. وراتب ماري أقل من ذلك بكثير.

الاثنتَيْن؛ وأخيراً جاءت الجراة، وتصارحنا بأننا لايمكن أن نبقى معاً؛ إذ ليس لدينا ما يكفي لسدّ رمق شخصٍ واحد من عائد قطعة الأرض؛ ولأن على ماري وقد بلغت سن الرشد (فها هي في السادسة عشرة)، أن تفعل كما تفعل الأخريات، وتجني لقمتها بيدها، وتساعد أمّها المسكينة .

- ياسيّدة "غيّيت"، قال الفلاّح العجوز، إذا كان لايلزمكم إلا خمسون فرنكاً لفكّ ضائقتكم، ولإعفائك من إرسال ابنتك إلى منطقة بعيدة، فسأجدها لك، بصدق، وإن كان مبلغ خمسين فرنكاً يثقل كاهل أناسٍ أمثالنا(١) . وعلى أية حال يجب تحكيم العقل بقدر تحكيم العاطفة. فإذا مانجوت من بؤس هذا الشتاء، فلن تنجي من البؤس القادم، وكلّما تأخّرت ابنتك في أن تأخذ قراراً، كلّما تفاقم غمّها وغمّك من افتراقكما. وماري صبية وقوية، ولا عمل يشغلها في بيتك، وقد يدفعها ذلك إلى التعوّد على الكسل...

- من هذه الناحية، تقول السيّدة غيّيت، أنا لا أخاف عليها، ماري بنت جسورة بقدر ماهي مدبّرة، ويمكن أن تكون مسؤولة عن عمل كبير، ولا تقف

---

(١) كان الدفع من الدخل يسبّب ألماً عارماً في (بيري) وعندما يدفع احدهم عشرة فلوس، يتحسّر لوقت طويل النظر: جورج صاند، رسالة ١٨٤٤/١/١٢.

لحظة واحدة مكتوفة اليَديْن، وعندما لايكون عندنا شغل، تنظّف وتمسح أثاثنا الفقير حتى تجعله صافياً كالمرايا. إنها طفلة تساوي ثقلها من الذهب، وكم كنت أتمنى لو تشتغل راعية عندكم بدل أن تذهب بعيداً عند أناس لا أعرفهم؛ كنتم أخذتموها في موسم القديس يوحنا لو أننا عرفنا أن نقرّر؛ لكنكم الآن استأجرتم كل الناس اللازمين لكم، ولايمكننا التفكير بذلك إلا في موسم القديس يوحنا للسنة القادمة.

-إيه! أنا أوافق عليها من كلّ قلبي يا سيِّدة ﭽِيِّيت! وَلَسَوْف يُسعِدني ذلك. ولكنها بانتظار العام القادم، يُستحسن أن تتعلّم مهنة، وتتعوّد على خدمة الآخرين.

– نعم، دون شك، لقد أصابها نصيبها؛ فصاحب مزارع "أورمو" قام بطلبها هذا الصباح؛ وقلنا نعم، ويجب أن تذهب. لكن الطفلة البائسة لاتعرف الطريق، ولا أحبّ أن أبعثها وحيدة هذه المسافة البعيدة. ولما كان صهركم ذاهبًا إلى فورش في الغد، فَبِإمكانه أن يأخذها معه. ويبدو أن فورش قريبة من المنطقة الراحلة إليها، على حدّ ماقيل لي؛ لأنني لم أسافر في حياتي صَوْبَها.

-إنها على مقربة منها، وسيقودها صهري إليها. هذا واجب. حتى إنه يمكن أن يصطحبها راكبةً على الفرس، مما سيحمي حذاءها، هاهو يعود ليتعشّى، قُل لي، ياجرمان، الصغيرة ماري بنت السيدة ﭽِيِّيت سَتُسافر إلى "أورمو" لِتَعملَ راعيةً، ستأخذها على فرسك أليس كذلك؟

في عالمنا الخاص بنا، لايخطر ببال أمّ من الأمهات مثل هـذا الخـاطر، بـأن تؤمن رجلاً في الثامنة والعشرين، لأن عمـر جرمـان لم يكـن في الحقيقـة سـوى ثمانية وعشرين عاماً، على بنتٍ في السادسة عشرة؛ ومع أنه عجـوز مـن وجهـة نظر الزواج بحسب عادات بلادنا، كان أجمل رجل في الناحية. فالعمل لم يكن قد أضناه بعد وأذبلـه كأغلبيـة الفلاحـين الذيـن تراكمـت علـى رأسـهم عشـر سنوات من الفلاحة. وكان له من القوة ما يجعلـه يفلـح عشـر سـنوات أخـرى دون أن يبدو عجوزاً، وينبغي أن يكون تخمين العمر قوياً جداً علـى عقـل فتـاة صبيّة ليمنعها من رؤيةٍ أن لجرمان سحنة طرية، وعين بارقة زرقاء كسماء شهر أيار، وفم وردي، وأسنان جميلة، وجسم متناسق مُنساب كجسـم حصـانٍ فـتيّ لم يُبارحِ المراعي بعد.

إنما نزاهة الأخلاق عُرْف مقدّس في بعـض الأريـاف البعيـدة عـن الحركـة الفاسـدة للمـدن الكـبرى، ومـن بـين جملـة عـائلات "نوهـان"، كـانت عائلـة "موريس" مشهورة بشرفها، وخدمتها للحقيقة. كـان جرمـان مسـافراً ليبحـث عن زوجة، وكانت ماري أصغر وأفقـر مـن أن يفكّـر فيهـا مـن هـذا المنظـور، وكان من المستحيل أن تخطر له فكرة سيئة تجاهها، إلا إذا كان رجلاً شريراً من دون قلب. والأب موريس لم يقلق إطلاقاً وهو يراه يأخذ الفتاة الجميلة راكبـةً على الفرس، واعتقدت السيدة "غِيّيت" أنها توجّه إليه إهانة فيما لـو طلبـت منه أن يحترمها كأخته؛ وهكذا صعدت ماري على ظهر الفرس وهي تبكي بعد

أن عانقت أمّها ورفيقاتها الصبايا عشرين مرّة. ورحل جرمان الذي كان حزيناً من جهته، ومُشفقاً بالأحرى على كآبتها، بهيئة وقورة، بينما كان الجيران يُلوّحون بأيديهم وهم يقولون وداعاً لماري البائسة دون أن يُراوِدَهم سوءُ الظنّ.



الفصل السادس

بيير الصغير

كانت الفرس "الصهباء" فتيّة، وجميلة، وقوية، تحمل حملها المضاعف دون عناء، ومن حيث هي مُكابِرةٌ وذاتُ حَمِيَّة، راحت تمدُّ أذنها، وتقضم لجامها. وبينما كانت تمرّ أمام المرعى الطويل، لمحت أمّها التي تُسمَّى ب "الصهباء العجوز" كما تُسمّى هي ب "الصهباء الفتية"، صهلت علامةً على الوداع. اقتربت "الصهباء العجوز" من السياج مُخلخِلَةً عقال رجليها، وهي تحاول أن تخبّ على طرف المرعى لتلحق بابنتها؛ ثم بدأت تصهل بدورها عند رؤيتها تسرع، ووقفت مفكّرة قلقة، رأسها إلى الأعلى، وفمها مملوء بالعشب الذي لم تعد تفكّر بأكله.

"هذه الدابة المسكينة تعرف دوماً ذرّيتها" قال جرمان لِيُسلّي ماري الصغيرة عن حُزْنها. ممّا يذكّرني بأنني لم أودّع ولدي الصغير "بيير" قبل

الرحيل. الولد الشقي لم يكن هنالك! كان يريد البارحة مساءً أن يجعلني أعده باصطحابه معي، وبكى لمدّة ساعة في سريره. وعند الصباح حاول بكل الوسائل أن يقنعني. أوه! كم هو غنوج ومتكاسل! لكن عندما رأى أن اصطحابه غير ممكن، غضب السيّد: راح يعدو بين الحقول، وما عُدت رأيته خلال النهار.

- أنا رأيته، قالت ماري وهي تجهد لإخفاء دموعها. كان يجري مع أولاد "سولا" من جهة الأشجار المقطوعة، واعتقدتُ أن وقتاً طويلاً مضى على وجوده خارج البيت، لأنه كان جائعاً، وكان يأكل ثمار البرقوق، والتوت البرّي. أعطيته خبزاً من زوّادتي، وقال لي:"شكراً ياصديقتي الظريفة ماري: عند مجيئك إلى بيتنا سأقدّم لك حلوى "الغاليت".". ابنُكَ لطيفٌ جداً ياجرمان !

- نعم، ياله من لطيف، أجاب جرمان، ولستُ أدري ما الذي لم أفعله من أجله! لو لم تكن جَدَّتُه أرجحَ عقلاً مني، لما استطعتُ أن أقاوم اصطحابه معي، حينما كنت أراه يصرخ باكياً حتى انتفخ قلبُه الصغير.

-طيّب! ولماذا لاتأخذه معك ياجرمان؟ فهو لن يزعجك كثيراً؛ ومعقول جداً عندما يتحقق مايريد!

- يبدو أن وجوده سيكون عبئاً هنالك حيث أذهب. على الأقل كان هذا رأي الأب موريس...وأنا مع ذلك، كنت أتصوّر، على العكس، أنه يجب

أن يرى كيف يستقبلونه، وأن طفلاً لطيفاً إلى هـذا الحدّ لايمكن إلا أن يكون مُعْتَبَرَاً بمشاعر صداقة حميمة ...لكنهم يقولون في البيت ينبغي ألا نبدأ بإظهار متاعب العائلة...لا أعرف لماذا أحدّثك عن هذا، ياماري الصغيرة، وأنت لاتفهمين شيئاً منه؟

-بلى، ياجرمان؛ أعرف أنك ستتزوّج مرّة ثانية؛ أخبرتني أمي طالبةً مني ألا أتكلم بهذا أمام أحد، لافي بيتكم، ولا في المكان الذي أذهب إليه، ويمكنك أن تكون مُطْمَئِنّاً: لن أنطق بكلمة واحدة.

-أحسن، لأن الأمر لم يتمّ بعد؛ وقد لا أناسب المرأة المعيّنة.

-يجب أن تأمل خيراً ياجرمان. ولماذا لن تناسبها؟

-من يعرف؟ عندي ثلاثة أطفال، وهذا صعب على إمرأة ليست هي أمّهم!

-صحيح، لكنّ أطفالك ليسوا كالأطفال الآخرين.

-أتظنين ذلك؟

-- إنهم رائعون كملائكةصغار، وتربيتهم حسنة إلى حدّ أننا لانرى أطفالاً ألطف منهم.

-لدينا "سيلڤان" غير المُريح كما يجب.

-إنه صغير جداً! ولايمكن إلا أن يكون مُزعِجاً، ولكنّه شديدُ الذكاء!

-حقاً إنه ذكي، وجريء! لايخاف البقرات ولا الثيران، ولو تركناه يفعل، لتَسلَّق على ظهر الأحصنة هو وأخوه الكبير.

-أنا، في مكانك، كنتُ اصطحبتُ الكبير، وأكيدٌ أنَّ وجود طفلٍ بهذا الجَمال عندك قد يجعلها تُحِبُّكَ فوراً!

-نعم، إذا كانت المرأة تُحِبُّ الأطفال؛ لكن إذا لم تكن تُحِبُّهم!

-هل توجد نساء لايحبِبْن الأطفال؟

- لَسْنَ كثيراتٍ على ما أظن، إنّما هُنّ موجودات في النهاية، وهذا مايُعذّبني.

-إذاً أنتَ لاتعرف هذه المرأة أبداً؟

-ليس أكثر مما تعرفينها، أخشى ألّا أعرفها بصورة أفضل بعد أن أراها. فأنا غير حَذِر. وعندما يُقال لي كلامٌ طيّب، أصدِّقهُ: حتى إنني نَدِمتُ أكثر من مرّة، لأن الكلام لايتطابق مع الأفعال.

-يقال إنها امرأة طيّبة جداً.

-من يقول ذلك؟ الأب موريس!

-نعم، يقوله حَمُوك.

-عال: ولكنّه لايعرفها على الاطلاق.

-طيّب، ستراها بعد حين، وستنتبه جيّداً، ويجب أن تأمل بألّاتَنْخدع ياجرمان.

-- اسمعي، ياماري الصغيرة، سأكون مسروراً لو أنك تدخلين بيتها قليلاً، قبل أن تذهبي مباشرةً إلى مزارع "أورمو": فأنت نبيهة، وقد برهنتِ دائماً على ذكائكِ، ولاتفوتكِ ملاحظة شيء، فإذا رأيتِ شيئاً يدعو إلى الريبة تُنبِّهيني بهدوء.

-أوه! لا، ياجرمان، لن أفعل هذا! أخشى كثيراً من أن أُخطئ؛ ومن جهةٍ ثانية لو أن كلمة قيلت دون قَصْد أدّتْ إلى صَدِّك عن هذا الزواج، سيكرهني أقرباؤك، ولديَّ مايكفي من هموم مُشابهة، ولا داعي لجرِّ أحزانٍ أُخرى على أمي المسكينة .

وبينما كانا يتحدّثان، تراجعت الصهباء رافعةً أذنيها، ثم استأنفت خطواتها، واقتربت من الدّغل، حيث بدأت تتعرّف شيئاً أخافها في البداية. ألقى جرمان نظرةً على الدغل، ورأى في الخندق، تحت أغصان كثيفة لاتزال طريّة قُطِعَتْ حديثاً من سنديانة، شيئاً حَسِبَ أنه حَمَلٌ، قال: "هذه دابّة تائهة أو مَيّتة، لأنّها لاتتحرّك. وربّما يبحث عنها أحد. يجب أن نرى ما الأمر!

-ليست دابّةً، صرخت ماري، إنّه طفلٌ نائم؛ هذا ابنك الصغير بيير.

-عجيب! قال جرمان وهو ينزل عن ظهر الفرس: انظروا هذا الولد الفاسد الذي ينام هناك، بعيداً جداً عن المنزل، في هذا الخندق حيث يُمكن أن تلدغه أفعى"!

ويحمل بين ذراعيه الطفل الذي ابتسم له وهو يفتح عينيه، وأحاط عنقه بيديه قائلاً له:"يا أبي الغالي، ستأخذني معك!

– آه، نعم! دائماً النغمة نفسها! ماذا كنت تفعل هنا يابيير الشقي؟

-كنت أنتظر مرور بابا من هنا؛ قال الطفل، أراقب الطريق، ولِكَثرة ماانتظرتُ، غَفَوْت.

-ولو كنتُ مررتُ دون أن أراك، كُنْتَ ستبقى خارج البيت طوال الليل، وكانَ أَكَلَكَ الذئب!

-أوه! كنت أعرف أنك ستزاني! أجاب بيير الصغير واثقاً.

-طيّب! الآن، ياولدي بيير، عانِقْني، وقل لي وداعاً، وعُدْ بِسُرعة إلى البيت، إذا كنتَ لاتُريد أن يتعشّوْا من دونك.

-إذاً أنت لاتُريد أن تأخذني! صرخ الطفل وهو يفرِكُ عينيه لِيُظهِرَ أنه عازمٌ على البكاء.

-- أنت تعرف جَيِّداً أن جدَّك وجدَّتك لايُريدان ذلك ، قال جرمان مختمياً وراء سطة حمويه العجوزين، كرجل قلّما يعتمد على سلطته الخاصّة.

لكن الطفل لم يسمع شيئاً. فبدأ يبكي بكاءً حقيقياً، وهو يقول طالما أنّ والده يصطحب ماري، فبإمكانه أن يصطحبه أيضاً. ردّا عليه بأنهم إن أخذاه معهما يجب أن يجتازوا الغابات الواسعة هناك حيث يوجد الكثير من الحيوانات الشّرِسَة التي تأكل الأطفال الصِّغار، والفرس الصهباء لاتريد أن تحمل ثلاثة أشخاص كما صرَّحتْ وهي ترحل، وبأنه لايوجد في المنطقة التي يذهبون إليها، سرير، ولاعشاء للأطفال. هذه الأسباب القوية كلُّها لم تُقنِع بيير الصغير؛ فارتمى على العشب وراح يتمرَّغ به صارخاً بأن والده لم يعد يُحِبُّه، وبأنه لن يعود إلى البيت لافي النهار ولا في الليل إذا لم يأخذه معه.

كان لجرمان قلبُ أب عطوف ضعيف كقلب امرأة. فموت زوجته، والعناية التي جهد وحيداً ليؤمّنها لصغاره، وكذلك فكرة أن هؤلاء الأطفال المساكين الذين لا أمّ لهم بحاجة إلى الكثير من الحبّ، أسهموا في جعْله هكذا، وقامت في داخله معركة قاسية، فبقدر ما كان يحمرّ خجلاً من ضعفه ويجهد في إخفاء امتعاضه عن الصغيرة ماري، بقدر ماكان العرق ينهمر من جبينه، وتُحاط عيناه بهالة حمراء مهيّأة للمزيد من البكاء. وأخيراً حاول أن يغضب؛ لكنّه، وهو يلتفت صوب ماري، كما لو أنه يتّخذها شاهداً على عناده، رأى أن وجه هذه الفتاة الطيبة مغسول بالدموع، فخانته شجاعته، وكان يستحيل أن يحبس دموعه مع أنه كان لايزال يصحق ويهدّد.

ـ في الحقيقة، قلبك قاس ٍ جداً، قالت له ماري أخيراً، ومن جهتي، لا أقدر أبداً على أن أقاوم بهذه الطريقة، طفلاً بالغ الحزن. هيّا! خذْهُ معك ياجرمان. فرَسُكُم مُتعوِّدةٌ تماماً على حَمْلِ شخصين وطفل، بدليل أنّ حَمُوك وحماتك الأكثر وَزْناً مني بكثير، يذهبان يوم السبت إلى السوق مع وَلدِهِم، على ظهْر هذه الفَرَس الممتازة. سَتَضَعُه أمامك، ومن جهة ثانية، أتمنّى لو أذهب مَشْياً على الأقدام وحدي ولا أُسبِّبَ الأسى لهذا الصغير.

ـ أجاب جرمان: إذاً سأتنازل عن رأيي وقد كنت أرغب قبل قليل في أن أترك نفسي تقتنع (باصطحابه). فالصَّهباء قويّةٌ وتحمل شخصيْن آخرَيْن أيضاً، لو كان على ظهرها مكان. لكنْ ما الذي سفعله إزاء هذا الطفل على

الطريق؟ فقد يبرد، ويجوع ... ومَنْ سَيُعتني به هذه الليلة وَغَداً لِيُنيمه، ويُغسّله، ويُلبِسَه؟ ولست أجرؤ على إسناد هذا الإزعاج على امرأةٍ لا أعرفها، سترى، من دون شك، أنني أرفع الكلفة نهائياً وأنا أبدأ قصّتي معها.

- بحَسَبِ الودّ أو الضّيق الذي ستُبديه، سوف تعرفُها على الفَوْر، صدّقني ياجرمان، ومن جهة أخرى، إذا صدَّقْتُ ابنك بيير، فأنا أتكفّل به. سآتي إلى بيتها لأُلبِسَه ثيابه، وسآخذه إلى الحقول غداً. سَأُسلّيه طوال النهار، وسأحرص على ألاّ ينقصه شيء.

-وسَيُضايقك يابُنيَّتي الطيبة! سَيُزعجك ! نهاراً بأكمله! وهذا وقت طويل!

-على العكس ، سيروقني ذلك، سيؤمّن لي رفقة تجعلني أقلّ حزناً في اليوم الأول الذي عليّ أن أقضيه في بلد جديد. سأتصوّر أنني لا أزال في بيتنا.

تعلّق الطفل بتنّورة ماري، وهو يراها تقف في صفّه، بِقوّة كان عليها أن تَسبّب له الألم لانتزاعها منه. وعندما لاحظ أن أباه شرع يقتنع، أخذ يد ماري بين يديه الصغيرتين السمراوَيْن الملوَّحتَيْن بأشعة الشمس، وراح يقبّلهما وهو يرقص فرحاً، ويشدُّها باتجاه الفَرَس، مع العجالة الحامية التي يحملها الأطفال في رغباتهم. "هيّا بنا، تقول الصبيّة، وهي ترفعه بين ذراعيها، ولنحاول أن نُريح هذا القلب المسكين الذي يقفز كعصفور صغير، وإذا أحسست بالبرد

عند حلول الليل، قل لي، ياصغيري بيير، سَأَلُفُّك بِبُرْنُسِي الصوفي. عانِقْ وَالِدَك، واطلُبْ منه السماح على ما فعلت من سوء. قل إن ذلك لن يتكرّر أبداً، أبداً، هل تسمع؟"

-نعم، نعم، على شرط أن أحقق له دائماً مايريد أليس كذلك؟

يقول جرمان وهو يمسح عينيْ الطفل الغريب!...حقاً أنت بنت طيبة للغاية، ياماري. لا أعرف لماذا لم تعملي راعيةً عندنا في موسم القديس بطرس الأخير. كم كنت ستعتنين بأطفالي، وكم كنتُ سأسعد بأن أدفع لكِ أجراً طيّباً على خِدْمَتهم، بدلاً من أن أذهب لأبحث عن أمرأة ربّما سَتعتقد أنّها تقدّم لي الفضل الكبير إذا هي لم تكرههم.

- يجب ألّا ترى الأشياء هكذا من جانبها السيء، أجابت ماري وهي تُمسك زمام الفَرَس عندما كان جرمان يُجلِسُ وَلَدَه على مقدّمة السّرج المكسوّة بجلد الماعز: فيما لو كانتْ زوجتُك لاتُحِبُّ الأطفال، تأخذني لخدمتكم السنة القادمة، وكن مُطمئِنّاً، سَأُسلّيهم إلى درجةٍ أنهم لن يُلاحِظوا شيئاً (قد تغيّر.

الفصل السابع

في البرّاح

لكن! قال جرمان، بعدأن مشوا بضع خطوات، بماذا سيظنّون في البيت عندما يَرَوْنَ أن هذا الولد لم يَعُد؟ سيكون الأهل قلِقين، وسوف يبحثون عنه في كُلّ مكان.

ستقول لِمُرمِّم الطريق الذي يعمل في الأعلى هناك، إنك تصطحب إبنَك، وسَتُطَلب إليه إبلاغ أهلك.

صحيح يا ماري، أنت تتحسَّبين لِكُلّ شيء. امّا أنا فلم أكن أفكّر، بعد، أن "جاني" ينبغي أن يكون هنا.

وبالضبط هو يسكن بالقرب من الإكارة، ولن يقصّر في القيام بالمهمّة.

وحينما احتاطوا بهذا الضمان، حث جرمان الفَرَس لإستئناف المسير، وكان بيير الصغير سعيداً جداً حيث لم يُدرك على الفور أنّه لم يتناول

.لطعام العشـاء،لكنه، وحركـة الفـرس تقـرص مَعِدتـه، بـدأ بعـد مسـافة فرسـخ يتثاءب،ويشحبُ لونُهُ، ويعترف أنه يوشك أن يموت من الجوع.

- ها هو يبدأ، قال جرمان، كنت أعلم جيداً أننا لن نذهب بعيداً قبـل أن يصرخ هذا السيّد من الجوع أو من العطش.

-أنا عطشان أيضاً! قال الصغير بيير.

-طيّب! سندخل إذاً مقهى الأم"روبيك" في "كورلي"(1) في فنـدق"مطلـع النهار".(2) الاستقبال فيه جيّد، إنما موقعه بائس! هيّا يا ماري، سنشـرب أيضـاً جرعةً من نبيذ.

- لا،لا، لستُ بحاجة إلى شيء، قالت،سأمسك الفرس خلال دخولك مع الصغير.

لكني أقصد دعوتك يـا بنـتي الطيبـة، لقـد أعطيـتِ خُبْزَ زَوّادتِك هـذا الصباح لابني بيير، وأنتِ لم تكسـري الصُّفْرة، و لم تشـائي أن تتعشّـيْ معنـا في البيت، و لم تكوني تفعلي سوى البكاء .

---

(1) Corlay، قرية تقع على مرتفع يبعد ٧ كم عـن لوهـان، علـى طريـق. شـارتورر» أي في منتصـف المسـافة بين لوهان ولورش (انظر الخارطة).

(2) Point du jour صاحبتُه الأم روبيك الملّقبة بـ «العرجاء البدينة».

-أوه! لست جائعة، كنت مهمومة جداً!، وأقسم لك أنني الآن أيضاً لا أشعر بأية رغبة في الأكل.

-ينبغي إجبارك، أيتها الصغيرة، وإلا فستمرضين. أمامنا مسافة طويلة علينا اجتيازها، وعلينا ألا نصل هنالك جائعين لنطلب الخبز قبل أن، نسلّم. أنا بنفسي ساعطيك المثال ،فمع أنني لا أشتهي الطعام كثيراً، لكنّ شهيّتي ستنفتح كلياً، باعتبار أنني، في نهاية الأمر، لم أتعشّ أيضاً. كنت أراك تبكين، أنتِ وأمّك، وكان هذا المنظر يقطّع أنياط قلبي. هيّا، هيّا، سأربط الصّهباء بالباب، انزلي، أريد أن تنزلي".

يدخلون، كلّهم،عند السيّدة روبيك، وخلال أقلّ من ربع ساعة، نجحت هذه العرجاء البدينة في أن تقدّم لهم بيضاً مقلياً شهيّاً وخبزاً أسمر، ونبيذاً مصفّى.

الفلاّحون لا يأكلون بسرعة، وكانت شهّية الصغير بيير جدّ مفتوحة حيث مضت ساعة كاملة قبل أن يفكّر جرمان باستئناف المسير. وكانت الصغيرة ماري قد أكلت على استحياء في البداية، ثمّ جاء الجوع شيئاً فشيئاً، ففي سنّ السادسة عشرة لا نستطيع أن نطبّق الحِمْية عن الطعام لوقت طويل، ومناخ الأريّاف قاس.والكلام الطّيب الذي قاله لها جرمان لِيؤاسيها، وليبعث فيها الجراة، أنتج اثره أيضاً، فجهدت لإقناع نفسها أن سبعة أشهر ستنقضي عمّا قريب، لتحلم بالسعادة التي ستعيشها إذ تَجِدُ نفسها بين أهلها، وفي

قريتها، لأن الأب موريس وجرمان اتّفقا على وعدها بأخذها لخدمتهم. لكن، لما بدأت تبتهج وتمازح الصغير بيير، خطرت على بال جرمان الفكرة البائسة بأن يجعلها تنظر من خلال نافذةِ المطعم مَشْهَدَ الوادي الجميل الذي نراه بأكمله من هذا الارتفاع، متفتّحاً، خصيباً، عارم الخضرة. نظرت ماري متسائلة عمّا إذا كانت تُرى من هناك منازل"بولير".

"دون شك، يقول جرمان، وتُرى الإكارة أيضاً، وحتى بيتكم.انظري هذه النقطة الرمادية الصغيرة، ليست بعيدة عن شجرة الحور في"غود ار"، تحت قبّة جرس الكنيسة.(١)

-آه ! أراها، قالت الصغيرة، وهنا عادت إلى البكاء من جديد .

-لقد أخطأت بجعلك تفكرين بهذا، يقول جرمان، لم أفعل اليوم سوى ارتكاب الحماقات! هيا بنا، يا ماري، لنذهب يا بنتي، فالنهار قصير، وخلال ساعة، عندما سيصعد القمر، لن يعود الطقس دافئاً".

(١) الدليل على «بولير» في الرواية هي «لوهان» في الواقع، هو أنّ «بولير» لا توجد فيها كنيسة.

تابعوا طريقهم، واجتازوا البراح الواسعة، ولم يكن جرمان يستطيع ان يجعل الصهباء تُسرع كثيراً، كي لايرهق البنت الصبية والطفل بسفر طويل جداً، وعندما تركوا الطريق ليدخلوا الغابة كانت الشمس قد غابت.

كان جرمان يعرف الطريق حتى"مانييه"، لكنه كان يظن أنها ربّما تكون أقصر، إذا لم يسلك طريق"شانتلوب"، غير أنه وهو ينحدر باتّجاه"بريسل"و"السيبّيلتير"، وهذا اتجاه لم يتعوّد على اتّباعه عندما كان يذهب إلى السوق، أخطأ الطريق، وأضاع زمناً قبل أن يدخل الغابة، ولما دخلها ثانيةً من الجانب الصحيح، ما لاحظ ذلك، مع أنه كان يُدير ظهره ل"فورش" ويقطع مسافةً طويلةً أعلى،من جهة"أردانت"[1]

وما كان يُعيقه عندئذٍ عن التوجُّه، ضبابٌ كثيفٌ كان يتصاعد مع قدوم الليل، ضبابٌ من ألوانِ ضَبابِ ليالي الخريف يجعله ضوءُ القمر الأبيض أكثر غموضاً، وأكثر خداعاً. وكانت برك الماء الكبيرة التي تتناثر على سطحها المنافذ الضوئية تنوح بأبخرة كثيفة إلى حدّ أنّه لم يَكُنْ يُلاحَظُ من الصهباء وهي تجتازها،سوى بقبقةِ أقدامها التي كانت ترفعها بصعوبةٍ من الوحل.

---

(١) طريق «شانتلوب» عمودية على الطريق من «لوهان» إلى «شاتورو» وتجتاز الغابة في الاتجاه الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي. و«بريسل» تقع جنوب غابة شانتلوب «والسيبيلتير» هو، لا شك، هضبة «بريسل» التي يعتبرها أهل المنطقة ضريحاً رومانياً.

وفي النهاية عندما وجدوا ممراً مستقيماً، ووصلوا إلى آخره، بحث جرمان ليرى أين كان،فأدرك أنه كان تائهاً، لأنّ الأب موريس وهو يدلّه على الطريق قال له إنه سيكون عليه بعد الخروج من الغابة أن ينزل على طرف منحدر وَعِر، ويجتاز مراعي واسعة، ويجتاز نهر ال"آندر" مرّتين في مُخاضَةٍ؛ حتى إنه كان مطلوباً منه أن يخوض في النهر بِحَذَر شديد، لأن أمطاراً كثيرة كانت قد هطلتْ في بداية الموسم، ويمكن أن يكون منسوبُ الماءِ مُرتفعاً فيه. ولمّا لم يجد مُنحَدَراً، ولا مرعى، ولا نهراً، إنما وجد البَراح مُتَّصِلة بيضاءَ كغطاءٍ من الثلج، توقّف جرمان، بحث عن منزل، وانتظر إنساناً عابراً، و لم يجد أيّ شيء يَدلُّه.عندئذٍ عاد على أعقابه، ودخل الغابة. بيد أنّ الضباب تكاثف أكثر أيضاً، وكان القمر مغطىً تماماً، والطرقاتُ مُخيفةً، والمستنقعاتُ عميقة.أوشكتِ الصهباء على الوقوع مرّتين، فلما كانت تحمل ثلاثةً، فقدتْ اندفاعها، وإذا كانت تحتفظ بشيءٍ من الإبصار كي لاتصطدم بالأشجار، فلم تكن تستطيع أن تمنع اصطدامَ الراكِبِيْن على ظهرها بأغصان ضخمةٍ كانت تقطع الطريق على ارتفاع رؤوسهم، وتَضَعُهم في خطر مُحْدِق. وقد فقد جرمان قُبَّعتَه في واحدٍ من هذه الاصطدامات، وعانى كثيراًحتى وَجَدَها. كان الصغير بيير قد نام، ولما ترك نفسه يتأرجح كحقيبة، كان يُمسكُ بذراعَيّ والدِه إلى درجة أنّ الوالد لم يَعُد يستطيع مساندة الفَرس ولا قِيادتَها.

ـ أعتقد أننا مسحورون. يقول جرمان وهو يتوقّف: فهذه الغابة[1] ليست من الضخامة حيث يضيع المرء فيها، إلا إذا كان سكران، ومنذ ساعتين على الأقل ونحن ندور فيها دون أن نستطيع الخروج منها. وليس عند الصهباء سوى فكرة واحدة في رأسها: أن تعود إلى البيت، وهي التي تجعلني أضيع. وإذا ما أردنا الذهاب إلى بيوتنا، فما علينا إلا أن نتركها تفعل. لكننا ونحن قد نكون على بعد خطوتين من المكان الذي يجب أن ننام فيه، فسنكون مجانين إن أهملناه، واستأنفنا مسيراً طويلاً. ومع هذا فأنا لم أَعُدْ أعرف ما أفعل. ولا أرى لا الأرض ولا السماء، وأخشى أن يُصابَ هذا الطفل بالحُمَّى إذا ظَلَلْنا في هذا الضَّباب اللعين، أو أن يسحقه ثِقْلُنا فيما لو وقَعَتِ الفرَس نحو الأمام.

يجب ألا نعاند أكثر، تقول الصغيرة ماري. لِنَنْزِلْ يا جرمان، أعطِني الطفل، سأحمله جيّداً ، وسأمنع بصورة أفضل مما تفعل، أن تنزاح عنه العباءة، وتكشف جسمه. جُرَّ الفرَس من زِمَامها، وَرُبَّما سنرى بوضوح أكثر عندما نصبح أقرب إلى الأرض.

لم تحمِهِمْ هذه الوسلية إلا من السُّقُوط عن الفَرَس،لأنَّ الضباب كان يَدِبُّ، ويبدو ملتصقاً بالأرض الرطبة. كان السَّيْرُمُتعباً، فغَدَوْا بعد قليل مُنْهَكِيْن حيث توقّفوا عندما لاقَوْا أخيراً مكاناً جافاًتحت أشجارِ سنديان

[1] تبلغ مساحة غابة «شالتلوب» ٤ كم٢

ضخمة. كانت الصغيرة ماري متعرّقة، ولكنها لم تَشْكُ و لم تقلق من شيء . وكونها مشغولة بالطفل فقط، جلست على الرمل، وأنامَتْهُ على رُكبَتَيْها، بينما كان جرمان يَستكشِفُ الأماكن المحيطة بعد أن علّق أعِنة الفرس بِغُصْنِ شجرة.

إلاّ أن الصهباء المتضايقة كثيراً من هذه الرحلة، نَهَزَتْ، وقطعتِ الرَّسَن، وهشَّمَتِ الأحزمة، مُطْلِقةً، بطريقةٍ مُكتَسبة، عدداً من الرَّفْسات أكثر عُلُوّاً من رأسِها، وهي تهرب عبْرَ الأحراش مُظهِرةً بقوَّةٍ أنّها لم تكن بِحَاجةٍ أحدٍ لِتَعْثُرَ على طريقها.

قال جرمان بعد أن حاول عَبَثاً أن يلحق بها، ها نحن على الأقدام، و لم يَعُدْ لنا من شيء يَدُلُّنا على الطريق الصحيحة، لأنه سيتوجب علينا أن نقطع النهر على أقدامنا، وعلى رؤية امتلاء هذه الطرقات بالمياه، نستطيع أن نكون مُتأكِّدين من أن المرعى تحت النهر. ونحن لانعرف المعابر الأخرى. إذاً ينبغي أن ننتظر انقشاع هذا الضباب، ولا يمكن أن يدوم ذلك أكثر من ساعة أو ساعتين. وحينما سنرى بوضوح، سوف نبحث عن منزل، أول منزل يقع على طرف الغابة،أمّا الآن فلا نستطيع الخروج من هنا، فهنالك خندق، ومستنقع، وما لستُ أدري أمامنا، ولا أعرف أن أقول ماذا يوجد وراءنا، لأنني لم أعُد أعرف من أية جهة وصلنا.

الفصل الثامن

تحت السّنديانات الضخمة

ـ حسناً، لنصبر يا جرمان، قالت الصغيرة ماري. لسنا في وضع سيء على هذا الارتفاع. والمطر لا يخترق خميلة هذه السنديانات الضخمة، وبإمكاننا أن نشعل النار، لأنني أشَمُّ رائحة حطب قديم لاينفع لشيء، وجاف بما يكفي لإشعاله، فهل لديك نار ياجرمان؟ كنت تُدخّن غليونك قبل قليل.

ـ كان معي نارا قَدّاحتي كانت على السّرْج في الحقيقة، مع الطرائد التي كنت أحملها لزوجة المستقبل،لكنّ الفَرَس اللعينة حملت معها كلّ شيء،حتى معطفي الذي ستضّيعه وتمزّقه بين الأغصان.

ـ لا أبَداً يا جرمان، السّرْج والمعطف والحقيبة هناك على الأرض، عند قدميك. لقد كسرت الصهباء الحزام ورمت كلّ شيء على الأرض وهي تهرب.

–قال الفلاّح: يا إلهي! هذا أكيد! فإن استطعنا إيجاد قليل من الخشب اليابس كيفما اتّفق، نجحنا في تنشيف ثيابنا، وتدفئة أنفسنا.

–ليس هذا صعباً، تقول الصغيرة ماري، فالحطب اليابس يُطقطق تحت الأقدام في كلّ مكان، إنما أعطني أولاً السرج إلى هنا.

–وماذا تُريدين أن تصنعي به؟

–سريرًا للصغير: لا، ليس هكذا، بل بالمقلوب، لن ينزلق الولد من الممر النصفي أولاً، ولا يزال دافئاً من ظهر الفرس ثانياً. ابسطه لي من كل طرف بهذه الحجارة التي تراها هناك.

– أنا لا أراها! لَديكِ إذاً عيون قطّة!

–خذ! ها هو إنّه جاهز يا جرمان، أعطني معطفك، لأُغطّي به قَدَمَيْه الصغيرين، وسأضع عباءتي فوق جسمه. انظرا إن لم يكن نائماً هناك جيداً كما في سريره! وَالمَسْ كم هو دافيء!

–حقاً! إنّكِ ملائمة للعناية بالأطفال يا ماري!

–ليس هذا بِسِحْر. والآن فتّش عن قدّاحتك في حقيبتك، وأنا سأهيىء الحطب.

- هذا الحطب لن يشتعل أبداً، فهو رطب جداً.

- أنت تَشكُّ في كلّ شيء، يا جرمان! أنت لا تتذكّر إذاً أنك كنت راعياً، وأشعلت نيراناً والعة في الحقول، وسط انهمار المطر؟

- نعم إنها موهبة الأطفال الذين يحرسون الدواب، أمّا أنا فقد كنت سائق بقر[1] منذ تعلّمت المشي.

- ولهذا السبب تتفوّق قوّة ذراعيك على مهارة يَدَيْك. خُذْ، ضع هذه «القرمة» وسترى إن كانت لن تشتعل! أعطني القدّاحة، وحفنةً من القشّ الجاف. طيّب! انفخ الآن، ألَسْتَ مصاباً بمرض في الرئتين؟

لا على حَدّ عِلْمي، قال جرمان وهو ينفخ مثل كِيْرِ حَدَّاد. وخلال لحظة، برقت الشعلة، باعثةً أولاً ضوءاً أحمر، ومتصاعدة أخيراً بدفقة توهّج مُزْرَقّة تحت خميلة السّنديان، تصارع ضد الضباب مُنَشّفةً الجوّ على محيط عشرة أقدام.

---

(1) سائق البقر هو الذي يقود الثيران إلى المذبح.

ـ والآن سأجلس إلى جانب الصغير كي لا يتساقط الشَّرَرُ على جسمه، تقول الصبيّة، وأنت ضع الحطب، وأوقد النار يا جرمان! لن نصاب هنا لا بالحمّى ولا بالزكام، وها أنذا أُجيبك.

–قال جرمان: بِذِمَّتي أنت بنت ذكيّة، وتعرفين أن تشعلي النار كساحرة ليلٍ صغيرة.أشعر بانتعاش كامل، وبأنّ روحي تعود إليَّ، فَقَبْل قليل كنتُ مُعكَّر المزاج وأنا مُبلَّل حتى الرّكبتين، ظانّاً أنني سأبقى كذلك حتى طلوع النهار.

– أَوَلا تحتسِبُ لِشيءٍ عندما نكون مُبلَّلِيْن؟ أردفتْ ماري.

– إذاً أنتِ لا يتعكّر مزاجُكِ أبداً؟

– لا! أبداً. وما نفع ذلك؟

– أوه! إنه عديم النفع، بالتأكيد، ولكن ما الحيلة التي تمنعنا عن تعكّر المزاج عندما نكون مُتضايقين، يَعلم الله أنها لا تنقصك، أنتِ، يا صغيرتي المسكينة:لأنك مع ذلك لم تكوني سعيدة دوماً!

– صحيح، لقد عانينا، أنا وأمي الفقيرة. كنّا مهمومتَيْن، ولكنّنا ما فقدْنَا الشجاعة أبداً.

-- قال جرمان: ربما كنت لن أفقد العزيمة في بعض الأعمال مهما كانت،لكنّ البؤس نكّبني، فأنا لم ينقصني شيء أبداً. وقد جعلتني زوجتي غنياً، وسأبقى طالما أنني أعمل في المزارعة: وسيدوم ذلك كما أرجو، إنما لكل إنسان همّه! أنا عانيت بطريقة أخرى.

-- نعم، لقد فقدت زوجتك، وهذه مصيبة كبيرة.

أليس كذلك؟

- أوه! لقد بكيتها كثيراً، لأنها كانت طيّبة جداً. هيّا، يا جرمان! يكفي، فَلْنتوقّفْ عن الكلام عليها، لأنني سأبكيها أيضاً، فأحزاني كلُّها توشك أن تنهمر عليّ اليوم.

- هذا صحيح، فقد كانت تُحِبُّكِ كثيراً، يا ماري! وكانت تحترمكِ وأمّكِ. هيّا! هل تبكين؟ انظري يا بُنيَّتي، أنا لا أريد أن أبكي، أنا...

ومع ذلك، فأنتَ تبكي يا جرمان! ولاتزال تبكي! وما العار في أن يبكي رجلٌ زوجتَهُ؟ لا تبتئِسْ، هيَّا! فأنا أُشاطِرك هذه المحنة!

- قَلبُكِ عامرٌ بالطيب يا ماري، ويُريحني أن أبكي معكِ. إنما قَرِّبِي قَدَمَيْكِ من النار. فَتنُّورتك مبلّلة كلُّها أيضاً، أيّتُها الصغيرة الطيبة! تعالي، سآخذ مكانك بجانب الصغير، دَفّئي نفسَك بطريقةٍ أحسن من هذه.

– أنا لا أشعر بالبرد، قـالت مـاري، وإذا أردت الجلـوس خـذ طرفـاً مـن المعطف، أما أنا، فمرتاحة جداً هكذا.

–الحقيقة أن وَضْعَنا ليس سيئاً هنا، قـال جرمـان وهـو يجلـس بجانبهـا. لا يضايقني قليلاً إلا الجوع، إنها التاسعة مساءً، وقد عانيت الكثير وأنا أقطع هـذه الطرقات الرديئة. إلى درجة أنني أشعر بِضَعْفٍ وعام. هل أنتِ غير جائعة أيضاً يـا ماري؟

– أنا؟ لا أبداً. لسْتُ متعوّدة مثلك على أكْلِ أربع وجبـات، وقـد نمـت كثيراً من الليالي دون عشاء، ولن يُدهشني أن تُضاف إليها ليلة أخرى.

– طيّب، إنَّ امرأةً مثلك امرأةٌ مريحـة، لا تُبـذِّر المصـروف، قـال جرمـان مُبتسماً.

– أنـا لسـتُ امـرأة. تقـول مـاري بِسَـذاجة،دون أن تُـدرك المواربـة الـتي تتّخذُها أفكار الفلاّح.هل تحلم؟

– نعم، أظنّ أنّني أحلم، أجـاب جرمـان، رُبّمـا الجـوع هـو الـذي يجعلـني أهذي!

- كم أنتَ شَرِهٌ إذاً! استأنفتْ كلامَها مُبتهجةً قليلاً بِدَوْرها. طيّب! إنْ كُنْتَ لا تستطيع أن تبقى خمس أو ست ساعات دون طعام، أليس معك طرائد في جُعْبتك، وعندك نار لِتَشْويها؟

- يَاللشّيطان! فكرة ممتازة! لكنّ الطرائد لِحَمْوِ المستقبل؟

- مَعَكَ بِتّةُ طيورِ حجل، وأرنب! ولا أعتقد أنك بحاجةِ ذلك كلّه لِتَشْبع؟

- لكن إذا شوينا منها هنا من غير مشواة، ولا سَفُّود، ستتحوّل إلى فحْم.

- قالتْ ماري، لا، أبداً، سأشويها لك تحت الرماد دون أن يكون فيها طَعْم الدخان، ألَمْ تَصْطَدْ في حياتك قُبّراتٍ من الحقول، وتشويها بين حَجَرَيْن؟ آه! حقاً أنا أنسى أنّكَ لم تكن راعياً! هيّا، انتفْ ريش طائرِ الحَجَل هذا! ليس بعنفٍ هكذا، ستسلخ جلده!

- هل تستطيعين نَتْفَ الحجلة الأخرى لِأرى كيف!

-تريد إذاً أن تأكل اثنتين؟ يا لَكَ من غُوْل! هيّا بِنَا، انتهى نَتْفُهُما، سأشويهما.

– ستكونين قيّمة مطعم ممتازة يا ماري، لكن للأسف ليس لديك صندوق مشروبات، وسأتنازل وأشرب من ماءِ هذه الرامة.

– أكُنْتَ تريد نبيذاً، هذا غير صحيح! وربّما لزِمَتْكَ القهوة؟ أوْ تعتقد أنَّكَ في السوق تحت الخيمة؟ ادْعُ صاحبة الفندق: هيّا أحضري مشروباً روحياً لِفَلاّحِ"پولير" الماهر!

– آه ! أتسخرين منّي أيَّتُها الملعونة الصغيرة؟ ألا تشربين النبيذ، أنتِ، إذا توفر لكِ؟

– أنا؟ شَرِبْتُه معك عندالسيّدة"روبيك"، للمرّة الثانية في حياتي، لكن لو كُنْتَ رزيناً، سأقدّم لك زجاجة نبيذٍ مليئةً تقريباً ومن النبيذ الممتاز، فما قَوْلُكَ!

– كيف يا ماري! إنّكِ إذاً ساحرة، حتماً؟

– ألم تكن مجنوناً، وتطلب زُجاجتَيّ نَبِيْذ عند السيدة"روبيك"؟ شَرِبْتَ واحدةً مع ابنك، وأخذتُ أنا غصْباً عني ثلاث جرعات ممّا وضعتَه أمامي، ومع ذلك دفعتَ أنتَ ثمن الزجاجتَيْن دون أن تراهما.

– طيِّب، وبعد؟

- وبعد، وضعتُ في حقيبتي الزجاجة غير المشروبة، لأنني فكّرْتُ بأنّك قد تعطش على الطريق أنت أو ابنك، وها هي معي.

- أنتِ البنت الأكثر تَيقُّظاً لَقِيْتُها في حياتي.

كانت تبكي وهي تخرج من المطعم. ولم يمنعها ذلك من التفكير بالآخرين أكثر مما تفكّر بنفسها! أيتها الصغيرة ماري، إن الرجل الذي سيتزوّج منك لن يكون أبله.

- أرجو ذلك، لأنني لا أتمنّى رجلاً أبله. هيّا، كُلْ حَجلتَيْك، فهما طَريّتان، ولِعَدَمِ وجود الخبز سوف تكتفي بالكستناء.

ومن أين حصلتِ على الكستناء يا شيطانة؟

هذا مُدهشٌ حقاً! فطُول الطريق وأنا أقطف الكستناء من الأغصان التي نمرُّ تحتها، وقد ملأتُ جيوبي منها.

والكستناء مشويّة أيضاً؟

إذاً كيف سأكون ذكية إذا أنا لم أضعها في النار فوْر إشعالها؟ هذا يحدثُ دائماً في الحقول.

– آه، يا ماري الصغيرة، ستعشّين سوية! سأشرب نخب صحّتك، متمنياً لك زوجاً طيّباً... كما تودّين أنتِ أن يكون. حدّدي لي ملامحه قليلاً!

–أنا عاجزة عن ذلك تماماً، يا جرمان، لأنني لم أفكّر بالزواج بعد.

– كيف، قطعاً! أبداً؟ يقول جرمان، وهو يبدأ الأكل بشهية فلاّح، إنما ينتزع أفضل قطع اللّحم ليُقدّمها لرفيقتِهِ التي رفضتْها بعِناد، واكتفتْ ببعضِ ثمار الكستناء. واستأنف كلامه وهو يلاحظ أنها لم تكن تفكّر بالجواب على سؤاله: قولي لي إذاً، لم تراودك فكرة الزواج بعد، مع أنّكِ في السِّنّ المناسب!

– قالت، رُبّما، لكنني فقيرة جداً. يلزمني على الأقل مائة فِلْس، لِدُخول بيتِ الزوجية، وعليّ أن أعمل خمس أو ست سنوات لتحصيلها .

–يا لَكِ من بنتٍ مسكينة! أتمنّى لو يُعطيني الأب موريس مائة فلس لأقدّمها لكِ هديّة.

لكَ الشكرُ الجزيل، يا جرمان، حسناً، وماذا عمّا قد يُقال عنّي؟

–ماذا تُريدين أن يُقال؟ كلّ الناس يعرفون أنني عجوز، ولا أستطيع أن أتزوّجكِ، إذاً، قد لا يفترضون أنني... وأنّكِ...

– قالت ماري، انتبه إذاً أيها الفلاّح! ها هو ابنك يَفيْقُ من نوْمه.

الفصل التاسع

صلاةُ العشاء

نهض الصغير بيير ينظر حوله بهيئة متأمّلة! "قال جرمان،أوه! لايفيق هـذا الطفل إلا عندما يسمع بالأكل! أصوات المدفع لاتوقظه، ولكننا عندما نحرّك فكّينا بجانبه، يفتح عينيه فوراً .

-أكيد كنت مثله عندما كنت في مثل سنّه. قالت ماري مع ابتسامة ماكرة. هيا، ياصغيري بيير، هل تبحث عن سماء سريرك(١) ، إنها مصنوعة من الخُضرة هذه الليلة، ياصغيري؛ لكن والدك لايتعشى حصّتك، كنت متأكّدة أنّكَ سَتُطالب بها.

ـ صرخ الفلاّح: ماري، أريد أن تأكلي. لن آكل ثانية، أنا شَرِهٌ وفظٌ : وأنت تحرمين نَفسْك من أجلنا، ليس هذا عدلاً، أنا خجلان من ذلك. أنظري، هذا الأمر سدّ جوعي، ولا أريد أن يتعشّى ولدي إذا أنت لم تتعشي.

---

(١) سماء السرير يزيّن سقف الغرفة، وهو عبارة عن ستائر معلّقة بالإطار الخشبي للسقف.

اتركنا مرتاحين، أجابت الصغيرة ماري، فأنت لاتملك مفتاح شهيّتنا. شهيّتي أنا مغلقة اليوم، إنما شهية ابنك مفتوحة كشهية ذئب صغير. أنظر كيف يأكل! أوه! سوف يكون فلّاحاً صُلْباً !

الواقع أن الصغير بيير كان يُظهِرُ ابنَ مَنْ يكون، فما كاد يفيق حتى شرع يلتهم الطعام دون أن يعرف لا أين كان، ولا كيف وصل إلى المكان الموجود فيه. وعندما شبع وجد نفسه مُثاراً بالأسئلة كما يحصل للأطفال الذين يخرجون عن طورهم، فزادتْ نباهته، وفضوله، ومُحاكَمَتُه عمَّا هو مُعْتَاد. تساءل أين هو، ولمّا عرف أنّه وسط غابة، اعتراه قليلٌ من الخوف. سأل والده: "هل توجد حيوانات شرّيرة في هذه الغابة؟."

-لا، أشار الأب، إنها غير موجودة أبداً. لاتخْشَ شيئاً.

- إذاً لقد كَذَبْتَ عليّ عندما قُلْتَ لي إذا ذهبتُ معك إلى الغابة الكبيرة، سيخطفني الذئب.

-هل تلاحظين هذا المُجَادِل؟ يقول جرمان مُنزعجاً.

-معه حقّ، تجيب ماري، لقد قلت له ذلك: ذَاكِرَتُه قويّة، ويتذكّر ماقلت. لكن اعلم، ياصغيري بيير؟ أن أباك لايكذب أبداً. عندما اجتزنا الغابة

الكبيرة كنتَ نائماً، والآن نحن في الغابة الصغيرة التي لاتوجد فيها حيوانات شرِّيرة.

-هل الغابة الصغيرة بعيدة كثيراً عن الغابة الكبيرة؟

– بعيدة بما يكفي، ومن جهة ثانية الذئاب لاتخرج من الغابة الكبيرة. ثم إنها إذا جاءت منها إلى هنا، فسوف يقتلها أبوك.

-وأنت أيضاً، ياماري الصغيرة؟

-ونحن أيضاً، لأنك قد تساعدنا، ياصغيري بيير؟ أنتَ لاتخاف؟ سوف تَضْرِبُها على ظهورها بقوّة.

-نعم، نعم، قال الطفل بِتفاخُر، وهو يتّخذ وضْعاً بطولياً: سنقتلها .

-- قال لها جرمان: لايوجد أحدٌ مثلك لِيُكلِّم الأطفال، ولِجَعْلهم يعقلون، حقيقي أنكِ كنت طفلة منذ زمن غير بعيد، وتتذكّرين ماكانت تقوله لكِ أمّك. أعتقد جازماً أن المرء كلما كان شاباً أكثر، يستطيع أن يتفاهم مع الأطفال أكثر. وخوفي كبير من امرأةٍ في الثلاثين من عمرها، لاتزال تجهل معنى أن تكون أمّاً، لاتفهم إلا بصعوبة كيف تُناغي طفلاً أو تتفاهم معه.

-ولِمَ إذاً يا جرمان؟ لست أعرف السبب الذي يجعل في رأسك فكرة سيئة عن هذه المرأة، هل تعود من عندها؟

-لِتَذهب المرأة إلى الجحيم! يقول جرمان. أوَدُّ أن كون راجعاً من عندها كي لا أعود إليها أبداً. وما حاجتي بإمرأة لا أعرفها؟

-قال الطفل: إذاً لماذا تتكلّم عن زوجتك دوماً اليوم، ألأنها ماتت؟...

-يالِلأسف! لم تَنْسَ أُمّكَ المسكينة الغالية إذاً؟

– لا، لأنني رأيتها موضوعة في صندوق جميل من خشب أبيض، وَلِأَنّ جدّتي قادتني بِالقُرْب منها لِتقبيلها، ولأقول لها وداعاً! كانت بيضاء كثيراً، وجسمها بارد، وكل مساء تجعلني عمّتي أُصلّي للربّ كي تذهب أمي وتتدفّأ معه في السماء. هل تعتقد أنها الآن في السماء؟

-أرجو ذلك ياولدي؛ إنما ينبغي دوماً أن تُصلّي؛ فالصلاة[1] تجعل أُمّك ترى كم تُحِبُّها.

-يجيب الطفل: سأصلي؛ لم أفكّر بالصلاة هذا المساء. لكنني لا أعرف أن أصلي وحيداً، دائماً أنسى من الصلاة قليلاً. يجب أن تساعدني ماري.

---

[1] ربما كان ما تقوله ماري هنا مفروضاً عليها، لأنه كلام الكاتبة الذي يأسف «رولّيان» لوجوده في غير مكانه كما يكتب في مقدّمة رواية «فرانسوا لوشابي» لـ «جورج صاند».

-أجل، ياصغيري بيير، سأساعدك. تقول الصبية. تعال أركع على ساقيّ.

ركع الطفل على تنورة ماري، وشبك يديه الصغيرتين، وبدأ يتلو صلاته، بانتباه وتُقى، أوّلاً، لأنه كان يعرف البداية جيداً؛ ثمّ بيطء وتردّد ثانياً، ويسترداد ماكانت تقوله له ماري كلمةً كلمةً في النهاية، فعندما كان يصل إلى هذا المكان من دعائه حيث يأخذه النعاس كل مساء، لم يستطع أبداً أن يحفظه إلى نهايته. وهذه المرّة أيضاً، ولّد عمل الانتباه، ورتابة صوته الخاص، أثرهما المعتاد؛ فلم يعد يلفظ المقاطع الأخيرة إلا بعد لَأْي، وبعد أن جعل نفسه يردّدها ثلاث مرات؛ تثاقل رأسه، وارتمى على صدر ماري: انبسطت يداه، وانفلتتا، مسترخيتين مفتوحتين على ركبتيه. وعلى بصيص نار المخيّم، رأى جرمان ملاكه الصغير نائماً في حضن الصّبيّة، التي، وهي تحوطه بذراعيها، وتدفئ شعره الأشقر بأنفاسها الصافية، تركت نفسها أيضاً تسرح مع حُلم ورع، وكانت تصلي ذهنياً من أجل روح كاترين.

راح جرمان المتأثر يُفتّش عمّا يمكن أن يقوله لماري ليعبّر عن مقدار الاحترام والامتنان الذي يكنّه لها، لكنه لم يجد من شيء يوضّح فكرته. اقترب منها ليقبّل ولده الذي كانت لاتزال تحمله مشدوداً على صدرها، وعانى وهو يرفع شفتيه عن جبهة بيير الصغير .

"أنتَ تقبّله بعنف، تقول ماري وهي تدفع رأس الفلاّح برفق، ستوقظه. اتركني أُنيّمه من جديد، فها هو يعود ثانية إلى أحلام الجنّة."

ترك الطفل نفسَه ينام، لكنه وهو يتمدّد على جلد الماعز الموجود على السّرج، سأل فيما إذا كان على ظهر الصهباء. ثم فتح عينيه الزرقاوين الواسعتين، وبينما تركهما مثبّتَيْن على الأغصان خلال دقيقة، بدا كما لو أنه يحلم في اليقظة، أو أنه كان مصدوماً بالفكرة التي خطرت بباله خلال النهار، وتشكلت فيه مع اقتراب النوم. "يا أبي، قال له، إن أَرَدّت أن تهبني أُمّاً أخرى، فأنا أريد أن تكون الصغيرة ماري."

ومن دون أن ينتظر جواباً، أغمض عينيه، ونام.

الفصل العاشر

رغماً عن البَرْد

لم يظهر على ماري أنها أعارت اهتماماً آخر بالكلام الغريب الـذي قالـه الطفل إلا من حيث هو برهـان علـى الصداقـة؛ لذلـك غطّته بعناية، وألهبـت النار، ولما لم يكد الضباب الجاثم فوق الرامة يبدو قريباً من الانقشـاع، أشـارت على جرمان بأن يتّخذ مكاناً قرب النارِ كي ينام.

"أرى أنك غفوت سلفاً؟ تقول لـه، لأنـك لم تعـد تنطـق بكلمـة، وتـرى الجَمْرة كما كان يراهـا صغـيرك قبـل قليـل. هيّا، نَمْ، سأسـهر عليكمـا، أنـتَ والطفل.

-بل أنتِ التي ستنامين، أجاب الفلاّح، وأنا سأحرُسُكما، لأنني لم يسبق لي أبداً الشعور بِعَدم الرغبة في النوم كاليوم، ففي رأسي خمسون فكرة.

– خمسون، هذا كثير، قالت البنيّة مع شيء من المزاح، وهناك كثير من الناس سيسعدون لو أن لديهم فكرة واحدة فقط[1]

-طيّب، إذا لم اكن جديراً بخمسين، فهناك على الأقل فكرة واحدة لاتبارحني منذ ساعة.

-سأقولها لك، هي والتي كانت في رأسك من قبل.

-حسناً، قوليها، إذا كنت تخمنينها ياماري، قوليها لي بنفسك، فهذا يسرّني.

-أجابت: منذ ساعة كانت عندك فكرة الأكل، والان فكرة النوم.

-ياماري، أنا لست إلا راعي أبقار، لكنّك فعلاً تعتبرينني ثوراً.

أنت بنت خبيثة، وأرى جيداً انك لاتريدين التحدّث معي. نامي إذاً، فهذا أفضل من نقد رجل ليس منبسطاً.

– إذا أردت التحدّث، تحدّث، قالت ماري وهي تتمدّد قليلاً قرب الطفل ساندةً رأسها على السرج. أنت تعاني اضطراباً ياجرمان، وبهذا فانت لاتبدي

---

(١) ربما كان ما تقوله ماري هنا مفروضاً عليها، لأنه كلام الكاتبة الذي يأسف «روليان» لوجوده في غير مكانه كما يلبث في مقدّمة رواية « فرالسو الوشامي» لـ «جورج» صالد.

من الشجاعة مايَليق بِرَجُل. فماذا عساي أن أقول، أنا، إذا لم أستطع أن أُقاوم حُزْني كما يجب؟

أجل، دون شك، وهذا بالضبط مايشغلني، ياصغيرتي المسكينة! سوف تعيشين بعيدةً عن أهلك، في بلد رديء من الأراضي البائرة والسَّبْخات، حيث ستُصابين بحُمّات الخريف التي لاتنجو منها الحيوانات المكْسُوَّة بالصوف، ممّا يزيد دوماً أحزان راعية مخلصة؛ وستكونين في النهاية وسط أناس غرباء قد لايكونون حَسَني المُعاملة معك، ولن يُقدِّروا قِيْمتَك. تصوَّري أن قول ذلك يزيد من قلقي، وعندي رغبة في أن أعيدك إلى أمّك بدل الذهاب إلى فورش[1]

-أنتَ تتكلم بطيبٍ بالغ، لكن دون داعٍ، ياجرماني الطيِّب؛ إذ يجب ألا يكون الإنسان جباناً إزاء أصدقائه، وبدل الحديث عن الجانب السيء لِحَظّي، عليك أن تُبيِّنَ لي جانبه الحسن، كما كنت تفعل عندما كُنّا في مطعم السيِّدة "روبيك".

-وماذا تُريدين! كان يبدو لي الأمر كذلك في تلك اللحظة، والآن يبدو بشكلٍ آخر. الأحسن أن تجدي لكِ زوجاً.

(١) في رواية «قصة حياتي» ج٣ف٣، تصف جورج صاند منطقة فورش بقولها: « نباتاتها وحيواناتها اكثر شحوباً وضموراً من نباتات وادينا وحيواناته»

-هذا غير ممكن ياجرمان، وقد بيّنته لـك، وإذا كـان غـير ممكـن، فأنـا لا أُفكِّر فيه.

– لكن فيما لو وُجِدَ هذا الزوج في النهاية؟ إذا قلتِ لي كيـف تتمنّين أن يكون، ربما أتوصّل إلى تخيُّلِ شخصٍ ما.

-التخيُّل لايعني الإيجاد، وأنا لا أتخيّل شيئاً؛ لأن هذا عديم الفائدة.

-ألستِ تُفكِّرين بالزواجِ من رَجُلٍ غنيٍ؟

-لا، طبعاً، لأنني فقيرة مثل "أيوب".[١]

-لكنْ إذا كان مَيْسور الحال، فلا يُزعجك أن تسكني مَسْكناً مُريحـاً، وأن تكون تغذيتك جيِّدة، ولباسك جديداً وسط عائلة أفرادها طيّبون يسمحون لكِ أن تساعدي أمّكِ.

-أوه! من أجل هذا، نعم! فكل أمنيتي أن أساعد أميّ.

-وإذا أمكن أن تُلاقي هذا الوضع، والـزوج ليـس شـاباً في مقتبـل العمـر بطبيعة الحال، فلن تَتَشدّدِي كثيراً.

(١) جاء باسمه سفر كامل من أسفار العهد القديم، يحكي أنه افتقر بعد غنىً وقوّة. وقد أحاطه الله بالآلام ليمتحنه، فصبر وهو يبارك الأيادي التي تؤذيه.

آه! سامحني ياجرمان. هذا بالضبط ما أتمسّكُ بـه، فأنا لا أتمنّى زوجاً عجوزاً.

-عجوز، دون شك لن تتمنّيه، إنّما رجل في عُمْري مثلاً؟

-عمرك عجوز بالنسبة لي، ياجرمان، أُحبّذ عمر باستيان، مع أن باستيان ليس رجلاً جميلاً مثلك.

-قال جرمان ممتعضاً: أتتمنّين باستيان راعي الخنازير؟ إنه صبي ذو عينين كعيون الحيوانات التي يرعاها.

-أعوامه الثمانية عشر تجعلني أتغاضى عن عينيه.

شعر جرمان بغيرةٍ قاتلة. قال: هيّا، أنا أرى أنّك تميلين إلى باستيان. هذه فكرة غريبة حقاً!

نعم، ستكُون فكرةً غريبة، أجابت ماري وهي تُقهقه، وسيكون زوجاً غريباً. سأجعله يعتقد بكُلّ ما أريد. مثلاً، ذات يوم قطفتُ قرصاً من البندورة(1) للسيد الخوري، وقلت لباستيان هذه تفّاحة حمراء جميلة، فَقَرَطها كأنه غول. لو أنك رأيت أيّةَ تكشيرةٍ كَشّرَ!

---

(1) لم تكن البندورة عام ١٨٥١ كثيرة الانتشار خارج منطقةِ وَسَط فرنسا.

- يا ألهي ما أقبحه!

-أنت لا تحبّينه إذاً، لأنّكِ تسخرين منه؟

-قد لايكون ذلك سبباً. إنما أنا لا أُحبّه: إنّه فظٌّ مع أخته، وَقَذِر.

--حسناً! ألا تشعرين بالارتياح لِأحدٍ آخر؟

-وبأيِّ شيء يهمّك هذا ياجرمان؟

-لايهمّني في شيء، بل قلتُ هذا لِنَتَحدَّث. وأنا أرى أيتها البنت الصغيرة، أنك عاشقةٌ سَلَفاً.

-لا،لا، ياجرمان، أنت مخطئ، ليس لديَّ شيءٌ من هذا القبيل حتى الآن!

ويمكن أن يأتي فيما بعد: لكن لما قرّرتُ ألا أتزوّج إلا بعد أن أجمع قليلاً من المال، فأنا عازمة على الزواج متأخّرة، ومن رجلٍ عجوز.

-طيِّب! خذي رجلاً عجوزاً على الفور.

-لا أبداً، فعندما لن أكون شابّة، لن يَهُمّني الأمر، أمّا الآن فهو مختلف..

-أعرف جيداً، ياماري، أنني لا أروقك: هذا واضح كفايةً ، يقول جرمان بتَحَدٍّ ومن دون أن يَزِنَ كلامه.

لم تُجِبْ ماري. انحنى جرمان باتّجاهها: كانت نائمة، هَزَمها النوم وكأنه صَعَقَها، كما يفعل الأطفال الذين يغفون وهم لايزالون يتثاءبون.

شعر جرمان بالسعادة لأنها لم تنتبه إلى آخِر ماقاله؛ واعترف في داخله أنّه لم يكن رزيناً أبداً، وأدار لها ظهره كي يبتعد عن الانشغال بها، ويُغيِّر موضوع أفكاره. ولكنه حاول جاهداً، فلم يستطع أن ينام، ولا أن يفكّر بشيء آخر غير الذي كان قد قاله لِلتّوّ. دارَ عشرين مرّةً حول النار، ابتعد، وعاد، وأخيراً، وهو يحسُّ بالاهتياج كما لو أنه ابتلع باروداً، استند على الشجرة التي كانت تؤوي الطفلَيْن، وتأمَّلَهما وهما ينامان. كان يفكر متسائلاً:

"لست أدري لماذا لم ألاحظ سابقاً أن ماري الصغيرة هذه هي أجمل بنت في البلد!... ليست مورّدة الخدَّيْن، لكنّ لها وجهاً طريّاً كزهرة الأدغال! ما أظرف فمها، وما أنعم أنفها الصغير!... إنها غير طويلة بالقياس إلى عمرها، لكنها مخلوقة كالسُّمَّنة، وخفيفة الظلّ مثل عصفور البرقش!... لا أعرف لماذا يهتمّ الناس كثيراً عندنا بأن تكون المرأة طويلة، وبدينة، مورّدة ... لقد كانت زوجتي أقرب إلى النحافة، وشاحبة، ومع ذلك كانت تروقني جداً. وهذه ضعيفة، إنّما صحّتها ليست سيئة، وجميلة الطلعة مثل جَدْي أبيض!... وكم

يبدو مظهرها لطيفاً، وعفيفـاً! كـم تقـرأ طِيْبَ قلبهـا في عينيهـا! حتـى عندمـا يغلقهما النوم! أما عقلها فيفوق عقل غاليتي كـاترين، يجـب أن أُناسـبها، ولـن أنزعج معها ... إنها مَرِحة، وحكيمـة، وكادحـة، ومحبّبـة، وغريبـة. ولا أدري ماذا يمكن أن نتمنّى أفضل من ذلـك... "لكـنْ مـاالذي يشـغلني بهَـذا كلّـه؟! استأنف جرمان وهويحاول أن ينظـر باتجـاهٍ آخـر. حَمْـوي لايرغـب أن يسـمع كلاماً في هذا الموضوع، وَسَتُعاملني العائلـة كلُّهـا علـى أنـي مجنـون!... ومـن جهة ثانية، هي نفسها، الطفلة المسكينة، لاتُريدني. وتَجِدُني عجـوزاً: قـالتْ لي ذلك ... ليست مهتمّة، وقلّما تتخوّف من أنها لاتـزال بائسـة، شـقيّة، لباسُـها تعيسٌ، تُعاني الجوع خلال شهرين أو ثلاثة أشهر من السـنة، بِهَـدف أن تُسـعد قلبها ذات يوم، وتستطيع الزواج ممّن يحلو لها ...؛ معها حق! ربما فعلتُ الشيء ذاته لو كنتُ مكانها ...، وإذا استطعت أن أتبـع إرادتـي، منـذ الآن، فسـوف أختار بنتاً على مزاجي بدل ان أحشر نفسي في زواجٍ لايُواتيني.

كان جرمان كلّما بحث أكثر عن العقلنة وتهدئة نفسه ، قلّتْ فُـرَص وصوله إلى نتيجة. كان يبتعد عشرين خطوة عن مكانه، ويـذوب في الضبـاب؛ ثمّ يجد نفسه، فجأة، راكعاً علـى رُكبَتَيْه بجـانب طفلَيْن نـائمَيْن. وأراد، ذات مرّة أن يُقبّل صغيره بيير، الذي كانتْ يدُه تلتفّ حول عُنُقِ ماري، فلم يتمكّن؛ لأن مـاري أحسّـت بنَفَـسٍ سـاخن كالنـار يهـبّ علـى شـفتيها، فاسـتيقظتْ، ونظرتْ إليه بِهَيئة مذعورة، ولم تفهم شيئاً على الإطلاق مما يدور في داخله.

" لمْ أكُنْ أراكُما، ياطفليَّ البائسيْن! يقول جرمان وهو ينسـحب بسرعة. كِدْتُ أقع عليكما، وأُسبِّب لكُما الأذى."

كان ماري من سلامة النيّة مـا جعلهـا تصدّقـه، وتنـام مـن جديـد. فعَبَر جرمان إلى الطرف الآخر للموقد، وأقسم باللّه أنه لن يتحرّك مـن مكانـه حتـى تكون قد استيقظت. ووفـى بوعـده، لكـن ليـس دون معانـاة، لقـد اعتقـد أنـه سيصبح مجنوناً.

وأخيراً ، حوالي منتصـف الليـل، انقشـع الضبـاب، واسـتطاع جرمـان أنْ يُشاهد لمعان النجوم عبْر الأشجار. وتحرّر القمر أيضـاً مـن الأبخـرة الـتي كـانت تحجبه، وبدأ ينثر اللآليء على الزَّبَد الرطب. وبقـي جـذع السـنديانة في ظلمـة جليلة، بينما كانت تبدو سيقان شجيرات البتولا، على مَقرُبَـةٍ منهمـا، كصـفٍّ من الأشباح المكفّنة. وكانت النار تنعكـس في الرامـة، وكـانت الضفـادع الـتي بدأت تعتاد انعكاسها، تُجازف بنقيقٍ متقطع حييّ. والأغصان الحـادّة للأشـجار العتيقة المحفوفة بالأعشاب المصفرّة تمتد وتتقـاطع فـوق مسـافرينا كـأيدٍ طويلـة شديدة النحول. لقـد كـان مكانـاً جميـلاً، لكنـه مهجـور وكئيـب إلى حـدّ أن جرمان، المضنى من المعاناة فيه، بدأ يغنّي، ويرمي حجـارةً في المـاء كـي يتغلّـب على الضجر الرهيب للوحشة. كان يتمنّى أن يوقظ ماري؛ ولمـا رآهـا تنهـض وتراقب وتتحسّس الوقت، اقترح عليها استئناف المسير.

"قال لها: خلال ساعتين اقترابُ الفجر سيجعل الهواء قارساً حيث لن نستطيع البقاء هنا على الرغم من نارِنا هذه ... الآن علينا أن نتصرّف، وسوف نجد بيتاً ينفتح لنا، أو على الأقل بعض مخازن الحبوب التي تُمكّننا من قضاء بقية الليل تحت سقوفها."

لم يكن لماري أن تختار، وعلى الرغم من أنها كانت لاتزال عندها رغبة عارمة في النوم، أجبرت نفسها على اتّباع رأي جرمان.

ويحمل جرمان ابنه بين ذراعيه دون أن يوقظه، جاعلاً ماري تقترب منه لتحتمي تحت معطفه، لأنها لم توافق على سحب عباءتها التي تحيط بجسد الصغير بيير.

ولّما شعر جرمان أن الصبية تكاد تلاصقه، بدأ يفقد صوابه بعد أن كان مبتهجاً وشارداً لبعض الوقت. ابتعد مرّتين أو ثلاث مرّات بصورة مفاجئة، وتركها تمشي وحيدة. وكان ، وهو يرى أنها لاتلحق به إلا بصعوبة، ينتظرها، ويجذبها بعنف إلى جانبه، ويضعها بِقوّة أدهشتْها، وزادتْها غَضَباً منه، دون أن تجرؤ على مُكاشفته بذلك.

وبحكم أنهم لم يكونوا يعرفون في أيّ اتجاهٍ يسيرون، ولا أيّة طريق يسلكون، مع أنهم يصعدون في الغابة مرّة أخرى، وجدوا أنفسهم من جديد،

وهم في مقابل البراح المنعزلة، يعودون على أعقابهم، وبعد أن داروا وساروا مدّة طويلة، لاحظوا الضوء عبْر أغصان الأشجار.

-"حسناً! هاهو بيت، قال جرمان، وأناس لايزالون سهرانين لأن النار مشتعلة. الوقت متأخر جداً إذاً؟."

لم يكن ذلك منزلاً: إنها النار التي غطّوها عند ذهابهم، وعادت فتأجّجت من جديد. لقد مشوا ساعتين لِيَعودوا إلى نقطة الانطلاق.



الفصل الحادي عشر

في العراء

ـ أمّا مشروع الزواج· فأنا اتخلّى عنه! قال جرمان وهو يضرب قدمه بالأرض. لقد أُلقِيَ علينا أذىً من السّحرِ.هذا أكيد، ولن نخرج من هنا حتى طلوع النهار. يجب أن يكون هذا المكان مسكوناً بالشياطين .

-قالت ماري: هيّا بِنَا، هيّا بِنَا، فَلْنَدَعِ الغضب ، وَلْنَتَّخِذْ لنا مكاناً هنا.سَنَشعل ناراً أ قوى، فالطفل مغطّى جيداً على نحْوٍ لايُعرِّضه لأيِّ خَطَر، وقضاء ليلة في العراء لن يُمِيتَنا. أين خبّأْتَ السرج يا جرمان؟ وَسَطَ العُلَّيق، يااللطَّيْش؟ كم هي مُريحةٌ استعادته!

-خذي الطفل احمليه، لأسحب سريره من الدّغل، فأنا لا أريد أن تنخزي يديك (بالشوك) .

-انتهى الأمر، ها هو السرير، وبعض الوخزات ليستْ طعنات سيف ، أجابت الفتاة الشجاعة.

وشرعت من جديد تنيم الطفل بيير، الذي كان بلغ نومه من العمق حداً جعله لايحس شيئاً في هذه الرحلة الجديدة. وضع جرمان كثيراً من الحطب في النار حتى إن الغابة أضيئت من حولهم : لكن الصغيرة ماري لم تعد تستطيع المقاومة، ومع أنها لم تكن تشكو من شيء، ماعادت تقدر أن تقف على رجليها. كانت شاحبةً، تصطكُّ أسنانها من البرد والضّعف. احتضنها جرمان بين ذراعيه ليدفّئها؛ وكان القلق والحنان والعاطفة المتأجّجة التي لاتقاوم قد أخرسوا حواسّه باستيلائهم على قلبه. وتدلّى لسانه كأنما بمعجزة، وتوقّف حياؤه، فقال لها:"ياماري، أنت تعجبيني ، وأنا متألم جداً لأنني لا أعجبك. فلو قبلت بي زوجاً، فلن يتمكّن حموٌ، ولا أقرباء، ولا جيران، ولانصائح، أن يمنعوني من أن أهبك نفسي. فأنا عارف أنّك ستجعلين أطفالي سعداء، وستعلّمينهم كيف يحترمون ذكرى أمّهم، وأنا، وقد ارتاح ضميري، أستطيع أن أرضي قلبي. لقد كنت دائماً أكنُّ لك مشاعر الودّ، والآن أحبُّك إلى درجة لو طلبت أن أخضع حياتي كلّها لِـألْف مشيئة تريدينها لأخضعتها على الفور. أرجوك، انظري كم أحبّك, وحاولي أن تنسي عمري. صدّقي أنها فكرة خاطئة نأخذها لأنفسنا عندما نعتقد أن رجلاً في الثلاثين، يغدو عجوزاً. ومن جهة ثانية ، ليس عمري سوى ثمانية وعشرين عاماً! عندنا تخشى بنت صبية أن تجرّ على نفسها الانتقادات إن هي تزوّجت من رجل يزيدها عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة، لأن ذلك لايتفق مع عادات البلد، لكني سمعت أن الناس في منطقة أخرى لم يعودوا يهتمون بهذا، وأنّهم، على العكس، يتمنّون، من أجل

ضمان البنت، أن يزوّجوا الصبية لرجل عاقل مقدام مجرّب أكثرمن ولد يمكن أن يسيء التصرّف، ويتحوّل من مواطن صالح، كما كان يُعْتَقَدُ إلى صبي فاسد. ثمّ إن السنين ليست هي دائماً معيار العمر، فالعُمُر يعتمد على القوة والصحة التي يتمتع بهما الإنسان. فعندما يكون الرجل مهزوماً من كثرة الشغل، والفقر، والسلوك الرديء،بجده عجوزاً قبل الخامسة والعشرين. بينما أنا ....لكّنك لا تسمعيني، يا ماري.

– أجل، يا جرمان، أنا أسمعك، قالت ماري، إنما أفكّر بما قالته لي أمي: فامرأة في الستين من عمرها يجب أن تَنْدُبَ نفسها عندما يكون زوجها في السبعين، أو في الخامسة والسبعين من عمره، لا يعود يقدر على الشغل لإطعامها. يصير عاجزاً، وعليها أن تعتني به في عمْر تبدأ معه هي نفسها تشعر بالحاجة الماسّة الى الراحة. وهكذا تنتهي بها الأيام إلى الحصير.

– الأهل على حقّ في أن يقولوا هذا، وأنا أوافقهم عليه، يا ماري، أجاب جرمان، ولكنهم في النهاية يُضحّون بفترة الشباب كلها، وهي أجمل فترات العمر، في استبصار ما سيكونون عليه في أرذل العمر، حيث لا يعود مُهمّاً أن ينتهي الإنسان بهذه الطريقة أو تلك. غير أني لست مُهدّداً من خطر الموت جوعاً في شيخوختي. وأنا قادر رأساً على توفير شيء من المال، لأنني، بحكم وجودي مع أهل زوجتي، اشتغل كثيراً، ولا أصرف شيئاً. ومن جهة ثانية لاحظي أنني أحبّك حُبّاً عارماً، سوف يمنعني من الشيخوخة. يقال إنه عندما

يكون الرجلُ سعيداً يحتفظ بشبابه، وأنا أشعر شعوراً تاماً أنني أشتر شباباً من باستيان كي أعشقك، لأنه لايُحبّك، فهو أغبى وأصغر من أن يدرك كم أنت جميلة، وطيّبة، ومخلوقة لتكوني مطلوبة. هيّا يا ماري، لا تمقتيني، فأنا أمست رجُلاً شرّيراً: لقد أسعدت زوجتي كاترين، وقالت أمام الله وهي على فراش الموت إنها لم تلاقِ مني أبداً سوى الرّضى، وطلبت إليّ أن أتزوّج ثانية. ويظهر أن روحها تكلّمت هذا المساء مع طفلها، أثناء لحظة نومه. ألم تسمعي ما كان يقوله؟ وكم كان فمه الصغير يرتعش، حينما كانت عيناه تنظران في الفضاء شيئاً لم نستطع رؤيته! كان يرى أمّه، نقي تماماً، وكانت هي التي تجعله يقول إنه يُريدك أن تَحُلّي محلها.

– أجابت ماري، والدهشة، والشرود بأجفانها: إنك تتكلّم بنزاهة، وكلّ ما تقوله صحيح. وأنا متأكّدة من أنني أفعل خيراً بحبّك، إذا كان هذا لا يُزعج أقاربك: لكنْ، ماذا تريدني أن أفعل؟ فقلبي لا يتوجّس منك. أنا أحبّك كثيراً، ومع أن عمرك لا يجعلك قبيحاً، فهو يُخيفني. ويبدو لي أنك تعني بالنسبة لي شيئاً ما، مثل خالٍ أو عرّابٍ، وأن من واجبي أن أحترمك، وأنك قد تمرّ بلحظات تعاملني فيها على أنني بنت صغيرة أكثر من اعتباري زوجتك، ومثيلتك. وفي النهاية، ربما ستسخر مني رفيقاتي، ومع أن التفكير بذلك حماقة، أعتقد أنني سأكون خجلة، وحزينة قليلاً يوم عرسي.

- هذه حجج أطفال، لأنكِ تتكلّمين تماماً كلام طفلة، يا ماري.

-قالت: طيّب! أنا طفلة، ومن اجل هذا أنا أخشى رجلاً راشداً بإفراط. وأنت تدرك جيداً انني صغيرة عليك، لأنك تلومني سلفاً على كلام دون منطق! وأنا لاأستطيع أن امتلك عقلاً أكبر مما يتطلّبه عمري.

-- يا للحسرة! يا إلهي، إذاً كم أنا مستحقّ للشفقة لكوني أرعن، وأسيء التعبير عمّا أفكرّ فيه! صرخ جرمان.يا ماري، أنت لا تحبّينني، هذه هي الحقيقة، فأنتِ تجدين أنّني بسيط، وبطيء الفهم. ولو كنت تحبّينني، قليلاً، لَمَا رأيت عُيوبي بهذا الوضوح. لكنّك لاتحبّينني، وها هي القضية!

--حسناً! هذه ليست خطيئتي، اجابت، وهي تشعر قليلاً بالإهانة لأنه لم يعد يخاطبها بضمير المفرد(١) ، لقد حاولت قدر المستطاع التفكير بذلك وأنا اسمعك، لكنني كلّما حاولت أكثر، قلّت قدرتي على أن أتصوّر أننا يجب أن نكون زوجاً وزوجة."

لم يجب جرمان. إنما وضع رأسه بين يديه، وكان يستحيل على الصغيرة ماري أن تعرف إذا كان يبكي، أو كان حَرِداً، أو نائماً. وداهمها بعض القلق من رؤيته مُكتئباً، ومن عدم قدرتها على تخمين ما كان يدور في رأسه، لكنّها

---

(١) **Tutoyer**: حيث كان يخاطبها بأنتِ، ثم غيّر الضمير من (**Tu**) إلى (**Vous**).

لم تجرؤ على محادثته زيادة. ولما كانت دهشتها مما قد حصل أبلغ من رغبتها في النوم من جديد، انتظرت الصّباح بفارغ الصّبر، مؤجّجة النار باستمرار، وساهرة على الطفل الذي كان يبدو أنّ جرمان لم يعد يتذكّره .

ومع هذا، لم ينم جرمان أبداً، إذ لم يكن يفكّر بنفسه، ولا بشيء يسليه، ولا بخطّة إغراءٍ لماري. كان يعاني، وعلى قلبه جبلٌ من الهموم. يتمنّى أن يموت. وبدا له أن كلّ شيء يجب أن يحمل إليه سوءاً، ولو استطاع البكاء لما قصّر. على أنه كان غاضباً من نفسه، غارقاً في عذابه، يختنق دون امتلاك القدرة والإرادة على الشكوى.

عندما طلع الصباح، وأعلنت عنه لجرمان حركة الريف، رفع رأسه من بين يديه، ونهض. ورأى أنّ الصغيرة ماري لم تَنمْ هي الأخرى، إلاأنه لم يعرف ما يقول لها للتعبير عن وحدته. كان مثبط العزيمة. خبّأ سرج الصهباء في الدغل من جديد، وحمل جعبته على كتفه، وأمسك ابنه من يده، وقال لماري: والآن يا ماري سنحاول إنهاء سفرنا. هل تريدين أن أوصلك إلى مزارع "أورمو"؟

أجابته:- سنخرج من الغابة معاً وحينما نعرف أين نحن، سيذهب كلٌّ منا في طريقه.

لم يجب جرمان. كان مجروح الشعور من كون البنت الصبية لم تطلب منه أن يوصلها إلى مزارع"أورمو" ولم يلاحظ أنه عرض عليها ذلك بلهجة تبدو محرِّضة على الرفض.

دلّهم على الطريق حطّاب التقوا به على بعد مائتي خطوة، وقال لهم بعد اجتياز المرعى الكبير لا يبقى عليهما سوى أن يسلك أحدهما الطريق باستقامة، ويتجه الآخر إلى اليسار كي يصلا إلى وِجْهَتَيْهِما المختلفتين، اللتين كانتا متجاورتين، أصلاً، إلى درجة أن المرء يرى بوضوح منازل "فورش" من مزارع "أورمو"، ومزارع"أورمو" من "فورش."

وبعد أن شكروا الحطّاب، وتجاوزوه، ناداهم ليسألهم عمّا إذا كانوا قد أضاعوا فرساً، وقال لهم" وجدت فرساً صهباء جميلة في ساحة بيتي، حيث ربما أجبرتها الذئاب على البحث عن ملجأ. نبحت كلابي طوال الليل، وعند طلوع الصباح، رأيت الفرس في الملجأ، ولاتزال فيه. فهيّا بنا إليها، فإن تذكروا ملامحها، تأخذوها".

أعطى جرمان سلفاً أوصاف الصهباء، وعاد، بعد اعتقاده أن الفرس فرسه، ليأتي بسرجها. وعندئذ عرضت عليه الصغيرة ماري أن تقود ابنه معها

إلى مزارع"أورمو" حيث يعود ويأخذه وهوذاهب إلى "فورش". قالت: إنّه مُتّسخ قليلاً بعد الليلة التي قضيناها. سأنظّف ثيابه، وسأغسل وجهه الحلو، وأسرّح شعره، وحينما يصير جميلاً، وأنيقاً تستطيع أن تقدّمه لزوجتك الجديدة.

--أجاب جرمان بمرح: ومن قال لك أريد الذهاب إلى "فورش"؟ قد لا أذهب إليها.

-أجل يا جرمان! عليك أن تذهب إليها، وستذهب. أجابت الصبيّة.

-أنتِ مستعجلة عليّ لأتزوّج من امرأة أخرى، كي تكوني متأكدة من أنني لن أزعجك بعد ذلك؟

-هيّا يا جرمان! فلْنَدعِ التفكير في هذا: هذه فكرة راودتْك خلال الليل، لأن هذه المغامرة اللعينة شوّشتْ ذهنك قليلاً. والآن يجب أن يعود إليك عقلُك، وأنا أعِدُك بنِسْيان ما قُلتَه لي، وبعَدمِ ذِكْرِه لأحد.

-إيه! تحدّثي عنه إن أردتِ، فأنا لستُ متعوداً على إنكار كلامي. ما قلتُه لك كان حقيقة، ونزيهاً، ولا أخجل منه أمام أيّ إنسان.

--نعم، ولكن لو عَلِمَتْ امرأتُك لحظةَ وصولك أنّك فكّرت بامرأة أخرى، فإن هذا سيجعلها سيئة معك. إذاً انتبه إلى الكلام الذي ستقوله الآن؛ لاتنظر إليّ هذه النظرات أمام كلّ الناس وبطريقة خاصة. فكّرْ بالأب موريس

الذي يتكيء على طاعتك له، وسيغضب عليَّ إذا منعتُك من تحقيق إرادته. نهارك سعيد يا جرمان، سأصطحب الصغير بيير معي لإجبارك على الذهاب إلى "فورش". هذا رهْن أحتفظ لك به.

-إذاً أنتَ تريد أن تذهب معها؟ قال الفلاّح لولده، وهو يراه يتعلّق بيديّ الصغيرة ماري، ويلحق بها بإصرار.

- نعم يا أبي، أجاب الطفل الذي كان قد سمع، وفهم على طريقته ما قالاه أمامه دون حذر. سأذهب مع نَعُوْمَتي ماري: وستأتي لتأخُذَني عندما ستنتهي من الزواج ثانية، إنما أريد أن تبقى ماري أمّي الصغيرة.

-أترين إنّه يريد ذلك بإصرار، هويريده! قال جرمان للصّبية. اسمع، ياصغيري بيير، أضاف جرمان، أنا أتمنّى، فَلْتُصبح أُمَّك، ولتبقى معك دائماً؛ إنّها هي التي لاتريد هذا. حاول أن تجعلها توافقك على ما ترفضه لي.

-كن مُطمئنّاً، يا أبي، سأجعلها تقول نعم: فماري تفعل دوماً ما أريد.

ويبتعد مع الصبيّة، بينما يبقى جرمان وحيداً، أكثر حزناً، وأكثر تردّداً من أيّ وقت مضى.



الفصل الثاني عشر

متأنّقة[1] القرية

ومع ذلك، فعندما سوّى جرمان ما تركه السّفرمن فوضى في ثيابه،وطاقم فرسه التي امتطاها بعد أن حدّدوا له طريق" فورش" فكّر بأنه لم يعد أمامه مجال للتراجع، وأن عليه أن ينسى تلك الليلة المضطربة مثل حلم خطير .

وجد الأب ليونارد على عتبة منزله المطلي بالأبيض، جالساً على مقعد جميل من الخشب المدهون باللون الأخضر القاتم. كانت أمام الباب ستُّ درجات موضوعة على شكل سلّم خارجي، مما يظهر أن قبواً كان تحت البيت ذات يوم. وجدران الحديقة والأرض المخصّصة لزراعة القنّب مكوّن من الكلس

(١) La lyonne du village: المتأنقة امرأة يُطلَب حضورها في الأعياد الريفية لأن غيابها عنها يعني انعدام المرح والمتعة، وهي غير « المتدورة» التي تريد أن تُبدي أناقتها، وغير «المرأة الخارقة» التي عُرفت في القرن التاسع عشر ببحثها عن ألوان اللذائذ كلها كما ترى السيّدة دو جيراردان.

المجبول بالرمل. كان منزلاً جميلاً، لا يلزمه إلا القليل كي يُنظَرَ إليه على أنه بيتٌ بورجوازي.

استقبل حَمْوُ المستقبل جرمان، وبعد أن سأله، خلال خمس دقائق، عن أخبار العائلة كلّها، أضاف الجملة المكرّسة لِمُساءلة من نلتقيهم، بتهذيب، عن الهدف من سفرهم: "أتيت تتنزّه هنا إذاً؟"

-أجاب الفلاح: أتيت لأراكم، ولأقدّم لكم هذه الهدية المتواضعة من الطرائد، من طرف الأب موريس، وهو يقول لكم، من جانبه أيضاً، إن عليكم أن تعرفوا نوايا مجيئي إليكم.

-- آه! آه! قال الأب ليونارد ضاحكاً، ومداعباً كرشه الممتلىء، نعم، أنا أرى، وأسمع وأفهم الموقف! وأضاف وهو يغمز بطرف عينه: لستَ وحدك من تقدّم لخطبة ابنتي يابني، ففي الداخل ثلاثة رجال ينتظرون مثلك. أنا من جهتي لا أردّ طلب أيّ شخص، ويزعجني كثيراً أن أستهجن أو أستظرف أحداً، فكلّهم طيّبون. ومع ذلك، وبفضل توصية الأب موريس، وقيمة الأرض التي تزرعونها، أتمنّى أن تكون أنت(الصهر). لكن ابنتي راشدة، وسيّدةٌ ثَرْوَتِها، فهي تتصرّف إذاً بحسب قناعتها. ادْخُلْ، وعرّف بنفسك، وآمل أن تكونَ الرقمَ المطلوب!

-عفواً، المعذرة، أجاب جرمان والدهشة تصعقه حيث وجد نفسه في زحام أرقام وكان قد حسب أنه سيكون وحيداً، لم أكن أعرف أن لابنتكم هذه المؤونة من الخاطبين، ولم آتِ لا نتزاعها من الآخرين.

- أجاب الأب ليونارد دون أن يتخلّى عن دعابته: إذا كنت تعتقد، بسَبَبِ تأخُّرك في المجيء، أن ابنتي كانت بائرة، فأنت مخطيء كثيراً، يا بنيّ. فَلَدى كاترين ما يجذب الراغبين في الزواج، وليس أمامها سوى مشكلة الاختيار.لكنْ ادخلِ البيت، أقول لكَ، ولا تتردّد، إنها امرأة تستحقُّ أن يُتَنَازَعَ عليها .

وصرخ وهو يدفع جرمان من كتفيه مع ملاطفة قاسية، داخلاً البيت: "هيّا، يا كاترين، ها هو خاطِبٌ جديد أيضاً."!

هذه الطريقة البَشُوشة والخشنة في تقديم الفلاّح إلى الأرملة، بحضور عشّاقها الآخرين، انتهتْ إلى تشويشه وإزعاجه. شعر بالارتباك، ولبث بضع لحظات لايجرؤ على النظر إلى الجميلة وبِلاطِها.

كانت الأرملة"غيران" متناسقة التكوين، ولاتنقصها الطراوة. لكنّ تعبير وجهها، وتَبرُّجها لم يروقا لجرمان من البداية. وكانت هيئتها فائرة، ومُغتبطة بنفسها، وتبدو بشعرها المشبوك بثلاثة صفوف من القِمَاش المخرَّم، وصدّارتها

الحريرية، ولفاعها الأسود من الحرير الخام، متلائمة قليلاً مع فكرة أنها أرملة وقورة وأنيقة.

لقد جعله تأنّق لباسها، ولباقاتها المنحلّة، يجدها بشعة وعجوزاً، مع أنها لم تكن لا هذه ولا تلك. فكّر بأنّ زينة بهذا الجمال، ولياقات على هذه الدرجة من البهجة، تناسب عمر الصغيرة ماري وعقلها، غير أن لهذه الأرملة دعابة ثقيلة ووقحة، وتحمل حليّها الجميلة دون تميُّز.

كان المُعجَبون الثلاثة يجلسون حول مائدة عامرة بالنبيذ وأصناف الطعام، وُضِعَتْ هناك من أجلهم بصورة دائمة، طيلة صبيحة يوم الأحد، لأن الأب ليونارد كان يرغب في إظهار ثرائه، و لم تكن الأرملة منزعجة أبداً من عَرْضِ أوانيها الجميلة، ومن تقديم طعامٍ وفير باعتبارها صاحبة دخل. حتى إن جرمان، على بساطته وحذره، لاحظ الأشياء بِنَظَرٍ ثاقب، ولأول مرّة في حياته اتَّخذ موقف الدفاع عن نفسه برفع الكأس. إذا إن الأب ليونارد أجبره على أن يحتلَّ مكاناً بين منافسيه، وعامله، وقد جلس بنفسه قبالته، بوصفه مَحْظِيَّهُ، واهتمّ به بإيثار. فهديّة الطرائد، على الرغم من الفجوة التي أحدثها فيها جرمان لحسابه الخاص، كانت وفرتُها كافية لِتُوَلِّد أثرها. وَبَدَتِ الأرملة مُتَأَثِّرة بالهدية، ونظر الخاطبون إليها نظرة احتقار.

أحسّ جرمان بتعكّرمزاجه في هذه المشاركة، ولم يكن يـأكل عـن طيـب خاطر، فمازحه الأب ليونارد قائلاً:"أنت حزين، تجرد مـن كأسـك. ينبغـي ألاّ يصدّ الحبّ شهيّتك، لأن عاشقاً لم يَكْسِـرِ الصُّفْرة بعـد، لايعـرف كيـف يجـد كلاماً جميلاً كذاك الذي يوضّح أفكاره مع جرعة نبيـذ". وتَحلّلَ جرمـان مـن الافتراض المسبق بأنـه عاشـق، والهيئـة المصطنعـة للأرملـة الـتي غضّـت الطـرف مبتسمةً، كما يفعل إنسانٌ واثقٌ من نجاحه، خلقتْ فيـه رغبـةَ الاحتجـاج علـى انكسارها المزعوم، لكنه خاف من أن يبدو غير متحضّر، فابتسم ولاذ بالصبر.

وتبّين له أن عشّاق الأرملة ثلاثة من الريفيِّين، لا بدّ أنهـم أغنيـاء إلى حـدٍّ يجعلها تقبل تقدُّمَهم لخطوبتها. عُمْر الأوّل أكثر من أربعين عامـاً، كـان تقريبـاً بضخامة الأب ليونارد، وكان الثاني أعـور، يعـبُّ مـن الخمـرة بقـدر مـا كـان مخبولاً بها، أما الثالث فكان شاباً، على شيء من الوسـامة، إنمـا كـان يريـد أن يبدو ذكيّاً، فيقول أشياء سطحية إلى درجـة تثـير الشـفقة. ومـع ذلـك، كـانت الأرملة تضحك لها كما لو أنها مُعجبة بهذه الحماقات كلّهـا، وهـي، بهـذا، لم تكن تبرهن على ذوق(رفيع). اعتقد جرمان في البداية أنها هائمة بـالفتى، لكنّـه لاحظ بعد قليل أنه هو نفسه يُلاقي منها تشجيعاً خاصّاً، ورغبة في أن يكشـف ذاته أكثر. مما هيّأ له سبباً لِيَعْتَدَّ بنفسه، ويظهر بمظهر أكثر برودا ووقاراً.

حانتْ ساعة القُدّاس، فنهضوا عن المائدة للذهاب إليه سويّةً. كـان يجـب أن يذهبوا إلى" مِيْرس"، على مسافة فرسخ ونصف من"فورش"، وكان جرمـان

تَعِباً إلى حدّ أنه تمنّى لو يتوفّر له الوقت ليأخذ قسطاً من النوم أوّلاً، ولكنه لم يتعوّد على التأخّر عن القدّاس، ورحل مع الآخرين.

كانت الطرقات مُغطّاةً بالبشر، والأرملة تمشي بهيئة فخورة، يحوطها خاطبوها الثلاثة، تتغطرس رافعة رأسها عالياً وهي تسلّم يدها تارةً لهذا، وتارةً لذاك. وكانت تتمنى كثيراً لو تُظهِرَ المعجبَ الرابع لعيون المارَّة، لكنّ جرمان وجد من الغباءأن ينجرّ مع جماعة من الرجال وراء امرأة، هكذا على مرأى من الناس جميعاً، فاحتفظ بمسافة مناسبة، وراح يتحدّث مع الأب ليونارد مُلتمِساً بذلك وسيلة تُسلّيه وتَشْغله حيث لا يبدوان أبداً أنهما جزء من المجموعة.

الفصل الثالث عشر

السيّد

عندما وصلوا إلى القرية، توقّفت الأرملة لتنتظرهما. كانت تريد بتصميم أن تدخل مع مُرافقيْها كلّهم، لكنّ جرمان الذي رفض لها هذه الرغبة، ترك الأب ليونارد، واقترب من عدّة أشخاص يعرفهم، ودخل الكنيسة من باب آخر. فاغتاظت منه الأرملة.

بعد القدّاس أبدت انتصارها في كلّ مكان على العشب حيث كان الناس يرقصون، وافتتحت الرقص مع عشّاقها الثلاثة الواحد بعد الآخر. ورآها جرمان تفعل ذلك، ووجد أنّها ترقص جيّداً، لكن بتكلّف .

ـ قال له الأب ليونارد وهو يربت على كتفه: حسناً! لن تدعو ابنتي إلى الرقص إذاً؟ فأنت لاتزال شديد الخجل !

-هجرتُ الرقص منذ فقداني لزوجتي، أجاب الفلاّح .

-طيّب! أن تبحث عن زوجةٍ أخرى، يعني أن الجِدَاد انتهى في القلب، وعن اللباس.

-ليس هذا عذراً، يا أب ليونارد ، ثم إنني أجد نفسي عجوزاً، و لم أعد أُحِبّ الرقص .

-أجاب ليونارد وهو يسحبه إلى مكان مُنعزل، اسمع، لقد شَعُرتَ بالغيظ، وأنتَ تدخل بيتي، لِرؤيتك المكان مُحاطاً سلفاً بالجالسين. وأنا أرى أنك حسّاس كثيراً، لكن ذلك غير منطقي يا ولدي. فابنتي مُتعوِّدةعلى أن تكون مُغَازَلةً، ولا سيّما منذ سنتين حيث أنهت جِدَادَها، وليس هي من يجب أن (تُبادر) وتعرض نفسها أمامك .

-ابنتك مُهَيَّأة للزواج منذ سنتين، و لم تختر زوجاً بَعْدُ؟ قال جرمان.
-لا تريد أن تكون مُستعجلة، وهي على حق. ومع أن مظهرها غَنُوج، وأنها قد تبدو لك غير متعقّلة كما يجب، فهي سيّدة ذات عقل كبير، وتعرف ماذا تفعل.

-قال جرمان بسذاجة، لايظهر لي ذلك، لأن وراءها ثلاثة مُعجَبين، ولو أنها تعرف ما تريد، فقد تجد اثنين منهما على الأقل يُعجِبانها، وتُصلّي كي تبقى عندهما!

- ولماذا؟ أنت لاتدرك شيئاًمن الحقيقة يا جرمان. فهي لا تريد العجوز ولاالأعور، ولا الشاب، أنا متأكدٌ تقريباً: لكن لو صَرَفْتهم، فَسَيعتقدون أنها تريد أن تبقى أرملة، ولن يأتيها خطّاب آخرون.

-آه! نعم! هؤلاء يشتغلون دلاّلين عندها!

-بالضبط كما تقول. وأين العَيْب في ذلك، إذا كان يُناسبهم؟

-لِكُلّ إنسان ذوقه! قال جرمان.

-أنا أرى أن ذلك قد لا يكون ذوقك. لكن، هيّا بنا، يمكن أن نتفاهم، فعلى افتراض أنك المفضّل عندها: قد يُخْلون لك المكان.

-نعم، على افتراض! وكم من الوقت عليّ أن أبقى وأنفي في الهواء، أنتظر إمكانية معرفة النتيجة؟

- هذا يعتمد عليك، فيما أظنّ، إن كنتَ تُجيد الكلام والإقناع. فقد أدركتْ ابنتي أن أجمل لحظات حياتها، إلى الآن، هي اللحظة التي تترك نفسها فيها للغزل، ولا تشعرأنها تتعجّل لتصبح خادمةً لرُجُل، عندما تستطيع قَمْعَ عِدّة رجال. وهكذا، كلما راقت لها اللعبة ، تَمَكّنَتْ من أن تتسلّى أكثر، لكن فيما لو رُقْتَ لها أكثر من اللعبة، فمن الممكن إيقاف اللعبة. وعليك ألاّ تَنْفُر من ذلك. تعالَ كُلَّ يوم أحد،أرْتِعْهَا، واجعلها تعرف أنّكَ انضمَمْتَ إلى

صفوف المُعجَبِيْن، فإذا وجدنا أنك أكثر جاذبية، وتهذيباً من الآخرين، فَسَنُبِّين لكَ ذلك، ذاتَ يوم، دون شك.

– عفواً، يا أب ليونارد، لا بنتك الحقّ في أن تتصرَّف كما تشاء، ولا أَمْلِكُ سَبَباً لتوبيخها. فلو كنتُ في مكانها لَتَصَرَّفْتُ بصورةٍ مختلفة، وطرحت المسألة بصراحة، دون أن أضيّع وقت رجالٍ لديهم، دون ريْب، شيء يفعلونه أهمّ من الدوران حول امرأة تسخر منهم[1] . لكن، في النهاية، إن كانتْ تَجِدُ في ذلك تسليتها وسعادتها، فهذا لايعنيني. عليّ فقط أن أقول لك شيئاً يُضايقني قليلاً منذ هذا الصباح أن أصرّح به، على اعتبار أنك بدأت بِخَطأ معرفةِ نوايـايَ من المجيء إليكم، وأنَّكَ لم تُعطِني الوقت لِأُجيبك: رغم أنّك تعتقد بما ليس له وجود أبداً. فاعلم إذاً أنني لم آتِ إلى هنا بِهَدَفِ طلب ابنتكم للزواج، إنما بهدف شراء زوْج من الثيران تريدون إنزاله إلى السوق الأسبوع القادم، وحَمْوي يظنُّ أنك ستوافقه على ذلك.

– أجاب الأب ليونارد بهدوء تام، فهمت، يا جرمان، لقد غيَّرتَ رأيكَ وأنت ترى ابنتي مع عشّاقها. يبدو أن ما يجذب بعض الناس يصُدّ بعضهم الآخر، ومعك الحق في أن تنسحب طالما أنّك لم تتكلّمْ بعد. وإن كنتَ تُريد،

---

(١) جورج صاند تُدين غالباً دلال المرأة، إذ تبيّن في رواية « معلّمو الترمسير بالقُرَب» أن عَيْبَ «بريْليت» الأوحد يَكْمُنُ في هذه النقطة.

بجدّ، أن تشتري ثيراني، فتعال لتراها في المرعى، سنحكي في أمرهـا، وسواء أتمّ البيع أم لم يتمّ، ستأتي لتتعشّى معنا قبل أن تعود من عندنا .

أجاب جرمان: لاأريد أن تزعجوا أنفسكم، ربّما كان لديكم شغل هنا، وأنا أتضايق من رؤية الراقصين دون أن أفعل شيئاً. سأرى ثيرانكم، وسنلتقي في بيتكم بعد قليل.

وهكذا تملّص جرمان، وتوجّه نحو المراعي حيث دَلّهُ ليونارد، في الواقع، ومن بعيد على جُزْءٍ من ماشِيَتِهِ. وكان صحيحاً أن الأب موريس كان يريد شراء ثورين منها، وظنّ جرمان أنه فيما لو قاد إليه زوجاً ممتازاً من الثيران بِسِعْرٍ معتدل، سيحصل على أفضل مُسَامَحة على تَخَلِّيه المقصود عن الهدف من سفره.

مشى بِسُرعة، ووجد نفسه، بعد حين، على مَقْرُبَةٍ من مزارع" أورمو".
فشعر حينئذٍ بالحاجة إلىتقبيل ولده، وإلى رؤية الصغيرة ماري أيضاً، مع أنه فقد الأمل بها، وطرد من رأسه فكرةً أنَّ عليه إسعادها. فكل ما كان قد رآه وسمعه، هذه المرأة الغاوية والتافهة، وهذا الأب المحتال والغبي في آنٍ معاً، الذي كان يشجّع ابنته على عادات من العجرفة والالتواء، ورفاه المدن الذي بدا له أنه تحطيم لشرف الأخلاق الريفية، وهذا الوقت الضائع في كلام تافهٍ عديم الجدوى، وهذه الطويّة المختلفة عن طويّته، وعلى الخصوص، هذا الامتعاض

العميق الذي يشعر به رجل الحقول عندما يخرج من عاداته الفلاحيّة. كل ما تحمّله جرمان من ضيق وارتباك منذ عدّة ساعات، خلق فيه رغبة في أن يجد نفسه مع ولده وجارته الصغيرة. فمع أنه لم يعد عاشقاً لهذه الأخيرة، كان عليه أن يبحث عنها ليتعزّى بها، وليعيد عقله إلى حاله المعهودة.

لكنه بحث عبثاً في المراعي المجاورة، فلم يجد فيها لا الصغيرة ماري ولا الصغير بيير: مع أن الوقتَ كان وقت تواجُدِ الرعاة في المراعي. كان ثمة قطيع كبير في أرض بائرة، فطلب إلى صبي يافع، كان ينظر إليه، فيما إذا كان قطيع الخراف تابعاً لإكارة"أورمو". " فقال الصبي: نعم.

-هل أنت راعي الخراف؟ وهل يرعى الصّبيان القطعان على حساب الإكارات في منطقتكم؟

-لا، أنا أحرسها اليوم فقط لأن الراعية رحلتْ: لقد كانت مريضة.

-لكن أليس عندكم راعية جديدة، وصلت هذا الصباح؟

- أوه! نعم! رحلت هي أيضاً.

-كيف رحلتْ؟ ألم يكن معها طفل؟

-نعم: طفل صغير بكى. لقد مضى على ذهابهما معاً حوالي ساعتين.

-دهابهما إلى أين؟

-من المكان الذي أتيا منه، على ما يظهر. لم أطلب منهما ذلك.

-لكن لماذا ذهبا إذاً؟ قال جرمان وهو يزداد قلقاً.

-وَيْ ! وما يُدريني؟

- لم يتفقا على الأجر؟ ومع ذلك كان يجب الاتفاق عليه سلفاً.

-لاأستطيع أن أقول لك شيئاً عن ذلك. رأيتهما يدخلان ويخرجان، وهذا كل ما رأيت. .

توجّه جرمان إلى المزرعة وسأل المزارعين. و لم يقدر أحد على أن يشرح له ما حدث، إنما كان واضحاً أن الصبيَّة، بعد أن تحدّثت مع صاحب المزرعة، ذهبت دون أن تنطق بكلمة، مصطحبةً الولد الذي كان يبكي.

صرخ جرمان الذي كانت عيناه تقدحان بالشَّرَر: هل عاملوا ولدي معاملةً سيئة؟

-إذاً إنّه ابنُك؟ كيف كان مع تلك الصغيرة؟ من أين أنتَ إذاً؟ وما الاسم الذي ندعوك به؟

عندما رأى جرمان أنه سيجاب على أسئلته، بحسب عادات تلك البلاد، بأسئلة أخرى، ركَلَ الأرضَ بنفاذ صبر، وطلب أن يتحدث إلى سيّد المزرعة .

لم يكن السيّد موجوداً: فليس من عادته أن يبقى طيلة النهار عندما يأتي إلى المزرعة. لقد ركب حصانه، ولا ندري إلى أية مزرعة من مَزارعه الأخرى توجّه.

ـ قال جرمان، وقد صار فريسةً لِقَلَقٍ كاوٍ: لكن، في النهاية، ألم تستطيعوا معرفة سبب رحيل الصبيّة؟.

تبادل المزارع ابتسامة غريبة مع زوجته، ثم أجاب أنه لا يعرف عن رحيلها شيئاً، وأن ذلك لا يعنيه. وكل ما استطاع جرمان أن يعرفه، هو أن ماري وبيير ذهبا من جهة فورش. فأسرع إلى فورش: لم تكن الأرملة وعُشّاقها قد عادوا، ولا الأب ليونارد أيضاً. قالت له الخادمة إن بنتاً صبية وولداً جاءا وسألا عنه، لكنّها، وهي لا تعرفهما، لم تشأ استقبالهما، ونصحتهما بالذهاب إلى" ميرس."

ـ قال جرمان باستعلاء: ولماذا رفضت استقبالهما؟ إذاً الناس حذرون جدّاً في هذه البلاد، حتى إنهم لايفتحون الباب لجيرانهم؟

-أجابت الخادمة، ويْ! في منزلٍ غنيّ كهذا المنزل معنا حـقّ في أن نتيقّـظ جيّداً. فأنا مسؤولة عن كل شيء في غياب الأسياد، ولا أستطيع أن أفتح الباب لأول القادمين.

قال جرمان : هذه عادة سيّئة، وأتمنّى لو أكون فقيراً ولا أعيش هكـذا في الخوف. وداعاً، أيّتها البنت! وداعاً لبلادكم القذرة !

سأل في البيوت المجاورة. لقد رأى الناس الراعية والطفل. ولما كان الصغير قد ذهب من"بولير" عشوائياً، دون هندام، بسترته الممزّقة قليـلاً، وعلـى جسـمه جلد الخروف، ولما كانت الصغيرة ماري، بحكم وضعهـا، ترتـدي لباسـاً عتيقـاً دائماً، فقد اعتبرهماالناس شحّاذين. فقدّما لهما الخبز، وقبلت الصبيـة أن تـأخذ قطعةً من أجل الولد الذي كان جائعـاً،ثـم ذهبـت علـى جنـاح السـرعة معـه، ودخلا الغابة.

فكّر جرمان لحظة، ثم سأل عما إذا كان صاحب مزارع" أورمو" قد أتى إلى"فورش" . أجابوه: نعم، لقد مضى على حصانه بعـد لحظـات مـن ذهـاب تلك الصغيرة.

-هل ذهب وراءها؟

- آه! إذاً أنت تعرفه؟ قال له صاحب مقهى المنطقة الذي كان يوجّه إليه الكلام، ضاحكاً. نعم، بالتأكيد، إنه عاهر مُولع بملاحَقة البنات. لكنني لاأعتقد أنه لحق بهذه، وإن كان في النهاية، إذا كان قد رآها...

-هذا كافٍ، شكراً!" وطار أكثر مما ركض إلى اصطبل ليونارد. وضع السّرج على الصهباء، وقفز فوقه، وذهب بسرعة قصوى باتجاه غابة " شانتلوب."

كان قلبه ينتفض من القلق والغضب، ويجري العرق من جَبْهتِه. وأدمى خواصر الفرس، التي لم تكن تطلب الرجاء، وهي ترى نفسها على طريق اصطبلها، كي تعدو بسرعة.

الفصل الرابع عشر

المرأة العجوز

بعد قليل وجد جرمان نفسه في المكان الذي أمضى فيه ليلةً على طرف الرّامة. كانت النار لاتزال تبعث الدّخان، وكانت امرأة عجوز تلملم بقايا مؤونة الحطب اليابس الذي كانت الصغيرة ماري قد كدّسته فيه. توقّف جرمان ليسألها. كانت طرشاء، لذلك قالت له، وهي تخلط تساؤلاته: " نعم، يا ولدي،هنا رامةُ الشيطان. هذا مكان ملعون، ويجب عدم الاقتراب منه دون رمي ثلاث حجارة فيه باليد اليسرى، مع رسم شارة الصليب باليد اليمنى: فهذا يطرد الأرواح الشريرة. وإلاّ وقعت المصائب على الذين يدورون حول الرامة."

-أنا لا أكلّمك عن هذا، قال جرمان وهو يقترب منها صارخاً بأعلى صوته: ألم تشاهدي بنتاً وطفلاً يمرّان في الغابة؟

"-نعم، قالت العجوز، غرق فيها طفل"!

ارتجف جرمان من رأسه حتى قدميه، لكنّ لحسن الحظ أضافت العجوز:
" منذ زمن طويل من اليوم، وقد زرعوا صليباً جميلاً لذكرى هذا الحادث، لكنّ الأرواح الشريرة رمته في الماء أثناء ليل عاصف. ويمكن رؤية طرف منه. ولو أن إنساناً تعيساً توقّف هنا في الليل، فلن يستطيع، بالتأكيد، أن يخرج منها أبداً قبل الصباح. سيمشي كثيراً، ويمشي، ويمكن أن يقطع مائتي فرسخ في الغابة، ويجد نفسه دائماً في المكان ذاته.

انصعق خيال الفلاح رغماً عنه ممّا كان يسمع، وفكرة المصيبة التي يجب أن تحصل لتنتهي إلى ترسيخ توكيدات المرأة العجوز، استحوذت على فكره استحواذاً كاملاً، حتى شعر ببرودة تجتاح جسمه. ولما يئس من الحصول على معلومات أخرى، امتطى فرسه من جديد، واستأنف الدّوران في الغابة مُنادياً بيير بكل ما أوتي من قوّة، وصافراً، مُفرقِعاً كرباجه، ومكسّراً الأغصان كي يملأ الغابة بضجيج مسيره فيها، ومستمعاً بعد ذلك ليعرف إذا كان صوتٌ ما يُجيبه، لكنه لم يكن يسمع سوى أجراس البقرات المنتشرة بين الأشجار المقطوعة، والصرخات الوحشية للخنازير التي كانت تتعارك على ثمار البلوط الساقطة على الأرض.

وأخيراً سمع جرمان وراءه حركة حصان كان يتبع أثره، وعليه رَجُلٌ كهل، أسمر ضخم، يرتدي لباس برجوازي متوسط، ناداه ليتوقّف. ولم يكن

جرمان قد رأى صاحب مزارع" أورمو"، لكنّ غريزة هائجة جعلته يحكم على الفور أنه هو. فعاد باتجاهه، ورازه من القدمين إلى الذؤابة، وانتظر ما كان عنده من كلام يقوله له.

ألم ترَ صبّية في الخامسة أو السادسة عشرة، مع صبي صغير يمّران من هنا؟ قال صاحب المزرعة مصطنعاً هيئة غير المكترث، مع أن اضطرابه كان ظاهراً بوضوح.

-وماذا تريد منها؟ أجاب جرمان دون أن يبحث عن إخفاء غضبه .

--بإمكاني القول لك: هذا لايعنيك، يا صاحبي! لكنْ لما لم يكن عندي سبب لإخفاء الحقيقة، أقول لك إنها راعية كنت قد استأجرتُها لهذه السنة دون أن أعرفها... وحينما رأيتها عند وصولها، بدت لي أصغر، وأضعف من أن تعمل في المزرعة. فشكرتها، إنما كنت أريد أن أدفع لها مصاريف سفرتها القصيرة، وبينما أدرتُ ظهري، ذهبتْ غاضبةً... لقداستعجلتْ كثيرا، حتى إنّها نَسِيَتْ بعض أغراضها، ونسيت أُجرتها التي لاتستأهل شيئاً يُذكر، بالتأكيد، ربّما بعض القروش!... وفي النهاية، لما كان عليّ المرور من هنا، فكّرْتُ في ملاقاتها هنا لأردّ لها ما نَسِيَتْهُ، ولأدفع لها ما يتوجب عليّ.

كانت طوّية جرمان أنزه من أن تجعله لايتردّد في سماع هذه القصّة التي إن لم تقترب جدّاً من الحقيقة، فهي على الأقل ممكنة. كان يُلقي نظرة ثاقبةً على صاحب المزرعة وهو يدعم هذا التقصّي بكثير من الوقاحة أو الخجل.

" أريد أن يكون قلبي صافياً إزاءه"، حدّث جرمان نفسه، وهو يكظم احتقاره. قال: هذه بنت من عندنا، وأنا أعرفها: يجب أن تكون في هذه الناحية... فلْنتقدّم سويّة... وسوف نجدها دون شك .

-معك حق، قال صاحب المزرعة. لِنتقدّمْ... ومع ذلك، إذا نحن لم نَرَها في آخر هذا المسلك، سأتخلّى عن البحث عنها... لأنّ عليّ أن آخذ طريق" آردانت."

-أوه! فكّر الفلاّح، لن أتركك! طبعاً يجب أن أدور معك خلال أربع وعشرين ساعة حول رامة الشيطان!

--انتظر! قال جرمان فجاءة وهو يثبّت عينيه على نبتة وزّال[1] تهتزّ بشكل لافت للنظر: هولا!هولا! الصغير بيير، أهذا أنت يا ولدي؟

---

[1] الوزّال (Genets) جنبة صفراء الزهر من فصيلة القرنيات الفراشية.

-عندما ميّز الولد صوت أبيه، خرج من جفنة الوزّال قافزاً كالأيّل، لكن ما إن رآه بصحبة صاحب المزرعة، حتى توقّف كالمذعور، وبقي مُرتاباً.

ـ تعال يا بني! تعال، هذا أنا! صاح الفلاّح وهو يركض وراءه، نازلاً عن ظهر فرسه ليأخذه بين ذراعيه: وأين الصغيرة ماري؟

-إنها هناك، مختبئة، لأنها خائفة من هذا الرجل الأسود اللئيم، وأنا خائف منه أيضاً .

-إيه! كن هادئاً، أنا هنا... يا ماري! ماري! هذا أنا . !

اقتربت ماري زاحفةً، وما إن رأتْ جرمان، وصاحب المزرعة يتبعه عن قُرْب، حتى هرعت وألقت بنفسها في حضن جرمان، وتعلّقت به كما تتعلّق البنت بأبيها: " آه، يا جرماني الشجاع، قالت له، سوف تُدافع عني، فأنا لا أخاف معك.".

اقشعّر جسد جرمان. نظر إلى ماري: كانت شاحبةً، مزّقت الأشواكُ ثيابها حيث كانت تجري باحثة عن دِغْل (تختبيء فيه)، مثل ظبيةٍ يُطاردها الصيادون. إنما لم يكن على وجهها عارٌ ولا يأس .

قال لها وهو لايزال يراقب ملامح صاحب المزرعة: سيّدك يريد أن يتكلّم معك.

-سيّدي؟ قالت بكبرياء، هذا الرجل ليس سيّدي يا جرمان... أريد أن تُعيدني معك، وسوف أخدمك دون مقابل. !

كان صاحب المزرعة قد تقدّم، متصنّعاً قليلاً نفاذ الصّبر. قال: ايه! أيّتها الصغيرة، لقد نسيتِ عندنا شيئاً أحمله إليك.

-أجابت الصغيرة ماري: لا، يا سيّد، لم أنس شيئاً ولا أطالبك بشيء.

-اسمعي قليلاً، أجاب صاحب المزرعة، عندي ما أقوله لكِ، أنا! ... هيا!... لاتخافي... كلمتان فقط...

-يمكن أن تقولهما بصوتٍ عالٍ... لاأسرار لي معك.

-تعالي خُذي نقودك، على الأقلّ.

-نقودي؟ أنت لست مدنياً لي بشيء، والحمد للّه!

كنت أشك بذلك كثيراً، قال جرمان بصوت خفيض، لكن هذا عدل، يا ماري... اسمعي ما عنده من قول لكِ... لأنّ عندي فضولاً لمعرفة ما

سيقول. وستقوليه لي فيما بعد، فلديّ أسباب تستدعي ذلك. اقتربي من حصانه... لن أرفع نظري عنكِ.

خَطَتْ ماري ثلاث خطوات باتجاه صاحب المزرعة الذي قال لها وهو ينحني على قربوس سرجه خافضاً صوته: " أيتها الصغيرة، خذي ها هي ليرة ذهبية... من أجلك! لن تقولي شيئاً، هل تسمعين؟ سوف أقول إنني وجدتك غير قادرة على العمل في مزرعتي ... ولْننْهِ هذه المسألة...سأمرُّ ثانية على بيتكم ذات يوم، وإن لم تقولي شيئاً، سأعطيك أيضاً شيئاً ما ... ثمّ، إذا كنت أكثر تعقّلاً، ليس عليك إلا أن تطلبي: سأصطحبك ثانية إلى بيتي، أو بالأحرى سأذهب للتّحدث معك في المراعي عند حلول الليل. أية هدية تريدين أن أجلبها لك؟

- هاهي، يا سيّد، الهدية التي أقدّمها لك، أنا! أجابت ماري بصوتٍ مرتفع، وهي ترمي الليرة الذهبية في وجهه، وبقسوة أيضاً. أشكرك كثيراً، وأرجوك أن تخبرني عندما ستمرّ إلى بيتنا ثانية: إذ سيأتي كل صبيان ناحيتنا لاستقبالك؛ لأن الناس عندنا يحبّون بعمق البورجوازيين الذين يخترعون الحكايات عن البنات الفقيرات! سوف ترى هذا، وسوف نكون بانتظارك.

- أنت كاذبة، وحمقاء اللسان! قال صاحب المزرعة مغتاظاً، وهو يرفع عصاه علامةً على التهديد. تريدين أن تجعلي الناس يعتقدون بشيء لم يوجد إطلاقاً. لكن أنتِ لن تبتزّيني: فأنا أعرف مثيلاتك. !

كانت ماري قد تراجعت مذعورةً؛ لكنّ جرمان كان قد انقضّ على رَسَنِ حصان صاحب المزرعة، وقال وهو يهزّه بعنف: "هذا واضح الآن. نحن نرى السبب الذي جعله يعود ... أنزل؛ ياصاحبي! انزل! لنتحدّث نحن الاثنين."!

لم يكن صاحب المزرعة متوجّساً من كسب الجولة: فوخز حصانه ليهرب، وأراد أن يضرب بعصاه يديّ الفلاّح ليُجبره على ترك الرّسن؛ لكنّ جرمان حاد عن الضّربة، ولما أمسك صاحب المزرعة من رجله، أنزله عن حصانه، وأسقطه على نباتات السرخس حيث طرحه أرضاً، مع ان صاحب المزرعة وقف على قدميه، ودافع عن نفسه بضراوة. وعندما ثبّته جرمان تحته قال له: "أيها الرجل الخسيس! أستطيع أن أقضي عليك بضربةٍ واحدة لو أردتُ. لكنني لا أحبّ فعل الشرّ؛ ومن جهة ثانية، لن يُهذّب ضميرَك أيُّ إصلاح ... ومع ذلك لن تتحرّك من هنا قبل أنْ تطلب العفو من هذه الصبيّة وأنت راكع على ركبتيك."

كان صاحب المزرعة الذي يعرف هذا النوع من قضايا تَنافُس رَجُلَيْن على امرأة، يريد أن يأخذ الموضوع بالمُزاح. فادّعى أن خطيئته لم تكن كبيرة؛ لأنه لم يُلِحّ عليها إلا بالكلام، وأنه كان يريد أن يعتذر؛ بشرط أن يقبّل البنت، وأن يذهبوا ليشربوا معه جرعة نبيذ في أقرب حانةٍ، وأن يفترقوا وهم أصدقاء.

– "أنت تزعجني! أجابه جرمان وهو يمرّغ وجهه بالتراب، وأنا مستعجل كي لا أعود وأرى طلعتك اللعينة. خُذْ، اخجل إن استطعت، وحاول أنْ تسلك طريق المخادعين[1] عند مرورك من ناحيتنا".

والتقط عصا صاحب المزرعة، وكسّرها على ركبته ليظهر له قوّة ساعديه، وألقى بقِطَعِها المكسورة بعيداً، وباحتقار. وابتعد، ماسكاً ولده بيدٍ، والصغيرة ماري باليد الأخرى، وهو يغلي غيظاً.

---

(1) طريق المخادعين **Le chemin des affronteux** هي، بِحَسَبِ جورج صاند، طريق تتفرّع عن الطريق الرئيسة عند مداخل القُرى وتُوازيها مِنَ الخارج. ويُعتقد أن الناس الذي يتوقعون عِرَاكاً يستحقّونه يسلكونها لِتَجنُّب أن يراهم أحد.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس عشر

العودة إلى المزرعة

بعد ربع ساعة احتازوا الأراضي البائرة. كانت تخُبُّ بهم الصهباء على الطريق الرئيسية صاهلة في كلّ مرّة ترى شيئاً تعرفه. وكان الصغير بيير يقصّ على أبيه ما استطاع أن يفهمه ممّا حدث.

ـ عندما وصلنا ، جاء، هذا الرجل ليتحدّث مع ماري في الزريبة حيث ذهبنا على الفور لرؤية الخراف الجميلة. أنا صعدت إلى المِذْوَدة لألعب، و لم يكن هذا الرجل يراني، عندئذٍ قال لماري صباح الخير،وقبّلها.

-استسلمتِ للتقبيل يا ماري؟ قال جرمان وهو يرتعد من الغضب.

-- اعتقدت أنها قبلة بريئة، وأنها عادة أبناء المنطقة عند وصول الغرباء، كالعادة، عندكم، حيث تقبّل الجدّة الصبايا اللواتي يعملن على خدمتها لتبيّن لهنّ أنها تتبنّاهنّ، وسوف تكون لهنّ كالأم.

-واستأنف بيير كلامه، وكان فخوراً بحكاية المغامرة، وعندئذٍ قال لك هذا الرجل كلاماً سيئاً، كلاماً أوصيتني ألا أردّده أبداً، وألاّ أتذكّره: وهكذا نسيتُه بسرعة. ومع ذلك، إذا أراد والدي أن أقول له ماكان...

-لا، ياولدي، لا أريد أن أسمعه، وأتمنّى لو تنساه إلى الأبد .

-- أجاب الطفل، في هذه الحال، سأنساه أيضاً. ثم إن هذا الرجل غَضِبَ عندما قالتْ له ماري إنّها راحلة. قال لها إنه سيُعطيها كلّ ماتريد، مائة فرنك! وماري غضبت أيضاً. وأقبل نحوها كما لو أنه كان يريد إيذاءها. فَخِفْتُ، وألقيت بنفسي على ماري وأنا أصرخ. حينئذٍ قال هذا الرجل هكذا: "ماهذا؟ من أين يخرج هذا الولد؟ أخرجوه لي من هنا.". ثم رفع عصاه ليضربني. لكنَّ ماري منعته، وقالت له: "سوف نتحدّث فيما بعد، أيها السيّد، والآن عليّ أن أقود هذا الطفل إلى فورش، ثم أعود". وحالما خرج من الزريبة قالت لي ماري: "لننجو بأنفسنا يابيير، فلنذهب من هنا بسرعة؛ لأن هذا الرجل شرّير، ولن يفعل لنا إلا الشرّ". مررنا وقتئذٍ من وراء الأكداس، واجتزنا مرعىً صغيراً، فصرنا في فورش لنبحث عنك. لكنّك لم تكن هناك، و لم نُرِدْ أن ننتظرك. وعندها لحق بنا هذا الرجل الذي كان يمتطي جواده الأسود، ونجونا بأنفسنا بعيداً، واختبأنا في الغابة. ثم جاء هو إلى الغابة أيضاً، وعندما كنّا نسمع وقْع مجيئه، كنا نختبئ. وعندما كان يمضي، كنّا نستأنف الركْض لنصل إلى قريتنا.

وأخيراً أتيتَ أنتَ، ووجدتنا. هذا كلّ ماحصل. أليس كذلك ياماري؟ هل نسيتُ شيئاً؟

-لا، ياصغيري بيير، وهذه هي الحقيقة. والآن ، ياجرمان، ستشهد معي، وسوف تقول لكل الناس عندنا إنني إذا لم أتمكّن من البقاء هناك، فليس لِنقْص همّتي، وانعدام رغبتي في الشُغْل.

- قال جرمان، وأنت ياماري، أرجوك أن تسألي نفسك، عندما يتعلّق الأمر بالدفاع عن امرأة، ومعاقبة رجل وقح، عمّا إذا لم يكن رجل في الثامنة والعشرين عجوزاً جدّاً! أتمنّى أن أعرف إن كان هذا الرجل لن يسحق باستيان، أو أيّ صبي جميل آخر، يصغرني بعشر سنوات، كما يقول الصغير بيير: ما رأيك؟

-أعتقد، ياجرمان، أنك قدَّمْتَ لي خدمة عظيمة، وسأظلُّ أشكرك عليها طوال حياتي.

- أهذا كلُّ شيء؟

-قال الصبي: يا أبي، لم أفكّر بقول ما وعدتك به. للصغيرة ماري. لم يكن عندي وقت، لكني سأقول لها في البيت، وسأحكيه لجدّتي أيضاً.

وأخيراً دعاه هذا الوعد من ابنه إلى التفكير. فعليه الآن أن يسوّغ سلوكه أمام أهل زوجته، وإلاّ يفصح لهم، وهو يبيّن اعتراضاته على الأرملة غيران، عن أفكار أخرى هيّأته لهذا القدر من التبصّر والقسوة. فعندما يكون الإنسان سعيداً، مزهوّاً، يبدو الاندفاع بجعل الآخرين يقبلون سعادته أمراً يسيراً. لكن أن يكون مصدوداً، وملوماً من جانب آخر، فهذا ليس بالموقف المريح للغاية.

لحسن الحظ، كان الصغير بيير نائماً عند وصولهم إلى الإكارة، فوضعه جرمان في فراشه دون أن يوقظه. ثم بدأ بكل التوضيحات التي استطاع تقديمها. جلس الأب موريس أمام البيت، على مقعده الواطئ ذي القوائم الثلاث، يسمعه بوقار، ومع أنه تضايق من نتيجة هذا السفر، لأن جرمان، وهو يحكي عن طريقة تغزّل الأرملة، طلب من حَمْوِه إذا كان لديه الوقت ليذهب خلال اثنين وخمسين أحداً في السنة من أجل مُغازلتها، ويكون معرّضاً للاستبعاد آخر العام. فأجابه حَمْوُه وهو يهزّ رأسه علامةً على الموافقة: "أنت لست مخطئاً ياجرمان، فهذا غير ممكن.". ولما حكى جرمان عمّا عاناه ليعيد الصغيرة ماري بأسرع مايمكن كي يخلّصها من الإهانة، وربما من اغتصاب سيّدٍ لئيم، وافقه الأب موريس بهزّ رأسه أيضاً، قائلاً: "لم تكن مخطئاً ياجرمان، فهذا واجب.".

لمّا أنهى جرمان قصّته، وقدّم مسوّغاته كلّها، زفر الأب موريس وزوجته معاً آهة خضوع عميقة وهما يتبادلان النظر. ثم نهض عميد الأسرة، قائلاً: هيّا بنا! فلتتحقّق إرادة الله! فالحبّ لايخضع للإرادة!

-تعال تعشّ، ياجرمان، قالت حماته. من المؤسف أن القضية لم تتمّ بصورة أفضل؛ لكن، في النهاية، لم يشأ الله ذلك على مايظهر. يجب أن نبحث في مكان آخر.

-نعم، أضاف العجوز، كما تقول زوجتي، سنرى مكاناً آخر.

لم يكن في البيت صوت آخر، وفي اليوم التالي، عندما استيقظ الصغير بيير مع القُبّرات منذ الفجر، و لم تعد الأحداث الخارقة للأيام السابقة تُثيره، غرِق في عَدَم الاكتراث المعهود عند صغار الفلاحين ممّن هم في مثل سِنّه، ونَسِيَ جملة ما شغل رأسه، وما عاد يفكّر إلا باللعب مع إخوته ، وبأن يَتَشترجل مع الثيران والأحصنة.

حاول جرمان أن ينسى أيضاً، وهو ينغمر من جديد بالعمل؛ لكنه صار حزيناً، وشارداً إلى حدٍّ لاحظه الناس كلُّهم. لم يعد يتكلم مع الصغيرة ماري، ولا يراها إلا لِمَاماً؛ ومع ذلك، لو سُئِلَ في أيِّ مرعىً كانت، ومن أية طريق مرّتْ، وفي أية ساعة من النهار، يستطيع أن يُجيب فيما لو أراد. و لم يجرؤ أن يطلب من حمويْه استقبالها في المزرعة أثناء الشتاء، مع أنه كان يعرف جيداً أنها

تعاني البؤس. لكنها لم تكن تعانيه، إذ لم تستطع الأم غبّيت أن تفهم أبداً كيف لاتنقص مؤونتها القليلة من الحطب، وكيف تمتلئ به سَقِيْفَتُها في الصباح بعد ان تكون قد تركتها خالية تقريباً في المساء. وحصل الأمر نفسه بالقمح والبطاطا. لقد كان أحدهم يدخل من كوّة السقيفة، ويفرغ كيساً على الأرض دون أن يوقظ أحداً، ودون ان يترك آثاراً. كانت العجوز قلقة من ذلك وسعيدة في آن معاً؛ وألزمت ابنتها بألا تتحدّث بأمره لأحد، قائلة إنّ الناس لو عرفوا المعجزة التي تحصل في بيتها، فسيعتبرونها ساحرة. كانت نعتقد اعتقاداً راسخاً أن للشيطان يداً فيها، لكنّها لم تكن مستعجلة معه لتستدعي تعزيمات الخوري إلى بيتها، وكانت تقول لِنَفْسها سيحين الوقت الذي سيأتي فيه الشيطان ويطلب روحها مقابل حسناته.

كانت الصغيرة ماري تدرك الحقيقة على نحو أفضل ، لكنها لم تكن تجرؤ أن تكلّم جرمان بشأنها، مخافة أن يعود ثانية إلى فكرته بالزواج منها. وكانت تتظاهر، إذ تلتقي به، بأنها لاتلاحظ شيئاً.

الفصل السادس عشر

السيّدة موريس

ذاتَ يوم، بينما كانت السيدة موريس وحدها في البستان مع جرمان، قالت له بلهجة وَدُودةٍ : ياصهري الطيب، أعتقد أنك لست على مايرام. فأنت لا تأكل جيداً كالعادة، وما عدت تضحك، ويقلّ كلامك يوماً بعد يوم. هل أزعجك أحد من عندنا أوهل أزعجناك نحن دون إرادة ودراية منّا؟

-لا، ياحماتي، أجاب جرمان، لقد كنتِ دائماً طيّبة معي مثل أمي التي وضعَتْني في هذا العالم، وسأكون عاقّاً لو شكوتُ منكِ، أو من زوجكِ، أو من أيِّ شخصٍ في البيت.

-في هذه الحال، ياولدي، إنه الحزن على فقدان زوجتك يعود إليك ثانية. فَبَدل أن يتلاشى مع الزمن، يزداد سوءاً. وعليك حتماً أن تفعل ما قاله لك حموك بحكمة تامّة: يجب أن تتزوج ثانيةً.

نعم، ياحماتي، قد تكون هذه فكرتي أيضاً؛ ولكن السيّدات اللواتي كنتم نصحتموني بالبحثِ عنهنّ لايُناسِبْنَنِي. وحينما أَرَاهُنّ أُفكّر بزوجتي كاترين أكثر، بدل أن أنساها.

- الظاهر، ياجرمان، أننا لم نعرف كيف نُخمّن حقيقةَ ذوقك. عليك إذاً أن تُساعدنا بأن تقول لنا الحقيقة. لاشكّ في أن هناك امرأة في مكان ما مخلوقة لك؛ لأن الله سبحانه لايخلق شخصاً دون أن يحفظ سعادته في شخص آخر[1] . فإذا أنتَ وجدتَ المرأة التي تُلائمك، تزوّجْها فوراً، سواءٌ أكانت جميلة أم قبيحة، شابّة أم عجوزاً، غنية أم فقيرة؛ فقد قرّرنا، أنا وزوجي، أن نشاركك مشاعرك: لأننا سَئِمْنا من رؤيتك حزيناً، ونحن لايمكن أن نعيش بسلام ما لم تعِشْ أنت مُرتاحاً.

- ياحماتي، أنتِ رحيمة كالإله الرحيم، وحمْوي كذلك، أجاب جرمان، لكنّ تعاطفكم معي لايُمكن أن يحمل علاجاً لهمومي: فالبِنْت التي أُريدها لاتُريدني.

-لأنها صغيرة جداً إذاً؟ لكن من الخطأ أن ترتبط ببنتٍ صغيرة .

---

(١) هذه الفكرة التي تبدو شعبية للغاية موجودة في «المأدبة» لـ « افلاطون».

-طيّب! نعم، ياحماتي الطيبة، لقد جُنِنْتُ وارتبطْتُ ببنتٍ صغيرة، وألوم نفسي على ذلك. أحاول ألا أفكّر بها قدر استطاعتي؛ لكن إن اشتغلتُ أو إرْتحْتُ، إن كنتُ في القدّاس أو في سريري، مع أطفالي أو معكم، أفكّر فيها دائماً، ولا أقدر على التفكير بشيء آخر.

-إذاً يا جرمان هذا مِثْل سِحْر أُلقِيَ عليك؟ وليس لهذا إلا دواء واحد، هوأن تغيّر تلك البنت رأيها وتسمعك. يجب أن أتدخّل في الأمر، وأرى إن كان هذا ممكناً. ستقول لي أين هي، وما اسمها.

-يا لَلْحسرة! يا حماتي الغالية، لاأتجرأ، قال جرمان، لأنّكِ سوف تسخرين مني.

-لن أسخر منك، يا جرمان، لأنك تتعذّب، وأنا لاأُريد أن أزيد في عذابك. أهِيَ فانشيْتْ؟

-لا، يا حماتي، ليست هي أبداً .

-أو" روزيت" ؟

-لا

-قل لي من هي إذاً، لأنني لن أنتهي، إذا كان يجب أن أُسمّي بنات البلد كلّهن.

أخفض جرمان رأسه، و لم يستطع أن يُصمّم على الجواب. قالت السيدة" هيا بنا، سأدَعُك وشأنك اليوم، يا جرمان، ربما صرْتَ غداً أكثر ثقةً بي، أو أنّ كِلَيْنا ستكون أكثر مهارة في التحقيق معك". وتناولت سلّتها لتنشر غسيلها على شُجيرات الأدغال.

فعل جرمان مثل الأطفال الذين يقرّرون الكلام حينما لانعود نهتمُّ بهم. لحق حماته، وسمّى لها، في النهاية،الصغيرة ماري بنت السيّدة غِيّيت وهو يرتجف.

كانت دهشة السيدة موريس كبيرة: إنّ ماري آخر بنت يمكن أن تخطر ببالها. لكنها كانت لطيفة إذ لم تتعجّب، وأبقتْ تعليقاتها في ذهنها. ثم إنها، وهي ترى صمتها يُرْبِك جرمان، مدّت إليه سلّتها قائلة له: " وهل هذه حجّة كي لا تساعدني في شغلي؟ خُذْ احمِلْ السلّة إذاً، وتعال احكِ لي. هل فكّرت جيداً يا جرمان؟ هل صمّمْتَ نهائياً؟

-لِلأسف! يا حماتي الغالية، ليس هذا ما يجب التحدُّث عنه: قد أصمّم لو كنت أستطيع النجاح، لكن وأنا أعرف أنها لن تسمعني، فَلَسْتُ مُصمّماً إلا على الشّفاء منها إذا تمكنتُ .

-وإذا لم تتمكّن؟

-لكل شيء نهاية، يا سيّدة موريس: فحينما يكون الحصان مُحَمَّلاً زيادةً، يقع، وعندما لايجد الثور ما يأكله، يموت.

--هذا يعني إذاً أنك سوف تموت، إذا لم تنجح؟ لا سمح الله، يـا جرمـان! لاأُحِبّ أن يقول رجل مثلك هذا الكلام، لأنه عندما يقولـه، يكـون قـد فكَّـر فيه. إن شجاعتك وافرة، وضعف الأقوياء خطير. هيّا. كن مُتفـائلاً. لا أعتقـد أنّ بِنتاً فقيرة، أكرمْتَها كثيراً وانت تبحث عنها، يُمكِن أن ترفضك .

-ومع ذلك، هذه هي الحقيقة، إنّها ترفضني.

-وما الأسباب التي بَيَّنَتْها لك؟

-أنكم احسنتم إليها دائماً، وأنّ عائلتها مدينة بالكثير لعـائلتكم، وهـي لاتُريد أن تزعجكم بإبعادي عن زواجي من امرأةٍ غنية.

-إن قالت هذا، فهي تُبرهن عن مشاعر طيّبة، وهذه نزاهـةٌ مـن جانبهـا. لكنّها، وهي تقول لك ذلك، لا تشفيك أبداً من الحُبّ، ياجرمان، لأنّهـا تقـول لك دون شكّ إنّها تُحِبّك، وقد تتزوّجك فيما لو أرَدْنا ذلك؟

-هذه هي المَصيبة! فهي تقول إنّ قَلْبَها لايرتاح لي.

- وإن قالت مالا تعتقد به، لِتُبعِدك عنها بأفضل مايُمكن، فهي طفلة تستحقّ أن نُحبّها، وأن نتغاضى عن مَيْعَةِ صِبَاها بسبب عقلها الكبير.

-نعم؟ قال جرمان يَصْعَقُه أملٌ لم يكن قد فكّر فيه بعد: قد يكون هذا حكمة، وَوَاجِبًا معقولَيْنِ من جانبها! لكن أخشى أن يكون سبب حكمتها الراجحة عدم إعجابها بي .

-قالت السيّدة موريس: ياجرمان، سوف تَعِدُني أن تكون مُطْمَئِناً طيلة الأسبوع، وألاّ تضطرب، وأن تأكل، وتنام، وتعود مَرِحاً كما كنت. وسوف أتكلّم مع زوجي، فإن جعلْتَه يُوافِق، ستعرف حينئذٍ شعور البنت الحقيقي تجاهك.

وَعَدَها جرمان، وها هو الأسبوع يمضي دون أن يقول له الأب موريس أيّة كلمةٍ خاصة، وبدا أنه لايرتاب بشيء. وجَهِد الفلاح لِيُظهر هادئاً، لكنّه كان دائماً أكثر شُحوباً واضطراباً.

الفصل السابع عشر

الصغيرة ماري

وأخيراً، يوم الأحد عند الخروج من الكنيسة، سألته حماته عمّا نال من صاحبته الطيّبة منذ محادثتهما في البستان .

-فأجاب: لاشيء على الإطلاق. لم أكلّمها أبداً .

-إذاً كيف ستُقْنِعُها إذا أنتَ لم تُكلّمها؟

– لم أتكلّم معها سوى مرّةٍ واحدة. أجاب جرمان. عندما كنّا معاً في "فورش" ومنذ ذلك الحين لم أَقُل لها كلمةً واحدة. فقد بلغ غمّي من رفضها أنني أودّ ألا أسمعها تكرّر أنّها لاتحبّني.

-طيِّب، ياولدي، يجب أن تتحدَّث معها الآن، فحَمْوك يسمح لك بذلك. هيّا، تشجّع! أقول لك، وإذا لزم الأمر، أُريدك أن تفعل ، لأنك لايمكن أن تبقى في هذه الحيرة .

أطاع جرمان. وصل إلى بيت السيّدة غِيّيت، رأسه منخفض، وهَيْئتُه مُرتبكة. الصغيرة ماري كانت وحيدة في زاوية قُرْب الموقد، غارقة في التفكير حتى إنّها لم تشعر بوُصول جرمان. وحينما رَأَتْه أمامها، قفزَتْ عن كُرسيّها من وَقْع المفاجأة، واحمرَّت خجلاً.

قال لها جرمان وهو يجلس بالقرب منها: أيتها الصغيرة ماري، أتَيْتُ لأزيد غَمَّك، وأُزعجك، أنا أعرف هذا جيّداً: إنما الرجل وزوجته في بيتنا (محدّداً بذلك عمِيْدَيْ الأُسْرة)، يُريدان أن أتكلّم معكِ، وأطلب منك الزواج. أنتِ لاتُريدين ذلك. هذا ما أتوقّعه .

-أجابت الصغيرة ماري: إذاً أنت عازمٌ على حُبّي ياجرمان؟

-هذا يزعجك، أعرف ذلك، لكنّها ليست خطيئتي: إن كنتِ قادرة على تغيير رأيكِ، سأكون سعيداً للغاية، ولا شك أني لا أستحق أن تُغيّري رأيك. هيّا ياماري، أنظري إليّ، فأنا قبيحٌ جدّاً طبعاً؟

-أجابت مُبْتسِمةً: لا، ياجرمان، أنت أجمل مني .

– لاتسخري، أنظري إليّ برأفة، لم أفقد حتى الآن شعرة من رأسي، ولا سناً من أسناني، وعيوني تقول لك إنها تحبّك. أنظري في عينيّ، فهذا مكتوب فيهما، وأيّة بنت تعرف قراءة هذه الكتابة .

نظرت ماري في عينيّ جرمان باطمئنانها المبتهج، ثم أدارت رأسها فجاءة، وبدأت ترتجف .

قال جرمان: "آه! يا إلهي! أنا أخيفك، أنتِ تنظرين إليّ كما لو كُنْتُ صاحب مزارع "أورمو". لاتخافي مني، أرجوك، فهذا يُعذّبني عذاباً فظيعاً. لن أقول لك كلاماً غير مناسب بعد ذلك، وأنا لن أقبّلك رغماً عنكِ، وعندما تودّين أن أذهب، فليس عليكِ إلاّ أن تُشيري إلى الباب. هيّا، هل يجب أن أخرج كي تهدئي؟

مدّت ماري يدها إلى الفلاّح، لكن دون أن تدير رأسها المنحني باتجاه الموقد، ودون ألا تَنْبُتَ بِبِنْتِ شَفَة .

قال جرمان: "فهمت، أنتِ تَرْثِيْن حالي، لأنّكِ إنسانة طيّبة، وأنتِ غاضبة لأنّكِ ستجعلينني بائساً: ومع ذلك فأنت غير قادرة على حبي؟

-وأخيراً أجابت الصغيرة ماري: لماذا تقول لي هذا الكلام ياجرمان؟ فَأَنْتَ إذاً تُريد أن تُبكيني؟

أيتها الصغيرة المسكينة، أعرف أنّ قلبك طيّب، لكنّك لا تُحبّيني، وتُخفين عنّي وجْهَك لأنّك تخشين أن أرى انزعاجك وقرفك. وأنا لا أجرؤ حتى على أن أضغط يدك! في الغابة عندما كان ابني ينام، وكنت تنامين أيضاً، كِدْتُ أقبّلك بهدوء. لكنني كنتُ سأموتُ من الخجل لو طلبتُ منك ذلك، وقد عانيت في تلك الليلة مايُعانيه رجلٌ يحترق بنارٍ هادئة. ومنذ ذلك اليوم، حلمت بك الليالي كلها. آه! كم كنت أُقبّلك ياماري! وكنتِ أنتِ تنامين خلال تلك الليالي دون أن تحلمي. والآن، هل تعرفين بماذا أفكّر؟ بأنك لو أدرت رأسك ونظرتِ إليّ كما أنظر إليكِ، وقرّبْتِ وجهك من وجهي، فأعتقد أنني سأموت من السعادة. وأنت تُفكّرين بأنه لو حصل لك الشيء ذاته، لَمُتِّ من الغضب والخجل. !

كان جرمان يتكلم كما لو أنّه في حُلم دون يَعِي مايقول. وكانت الصغيرة ماري لاتزال ترتعد، لكنّها لما كان ارتعادها يزداد باطّراد، لم يعد جرمان بلاحظه، وفجاءة، التفتت إليه، كان وجهها مُخْضلاً بالدموع، وكانت تنظر إليه مُعاتبة. فاعتقد الفلاح المسكين أنّها النظرة الأخيرة، فنهض ليمضي دون ان ينتظر معرفة موقفها. لكنّ الصبية أوقفتْه وهي تُحيطه بذراعيها ، وتُخفي رأسها في صدره: "آه! ياجرمان، قالت له وهي تنشج، لم تحزر إذاً أنني أحبّك؟ " .

كان من الممكن أن يُجَنّ جرمان لـو لم يَرُدَّ إليـه صوابَه ابنُـه الـذي كـان يبحثُ عنه حيث دخل الكـوخ يعـدو راكبـاً عصـاه، مـع أختـه الصغـيرة الـتي تركب وراءه، تَجلد بِغُصْنٍ من الصفصاف ذلك الحصان الخيالي. فَفَـوْر وصولـه حَمَلَه بين ذراعيه، ووضعه بين ذراعي خطيبته قائلاً لها: "خذي لقد جعلتِ مـني بِحُبّكِ لي إنساناً أكثرَ من سعيد ".

فهرست

يصدر قريباً

- إسمي آرام — تأليف: وليم ساارويان
  ترجمة: محمد جمول
- الماركسية والدين — تأليف: عبد الكريم الجباعي
- قصائد حب إنكليزية — تأليف: ابراهيم فاضل
- المعجم المساعد في فهم القواعد — تأليف: ميخائيل الياس بيطار
- اللذّة الأولى — تأليف: يانيس ريتسوس
  ترجمة: رفعت سلاّم
- النباتات الطبية — ترجمة: ميخائيل عيد
- العلاج الطبيعي والتداوي بالنباتات — تأليف: مجموعة من الباحثين
  ترجمة: سميّة الجندي





للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ص.ب:٦٣٤٨
☎ ٣٣٢٤٩١٤ - ٨١١٦٠٦
٥١٣٨٤٦٨